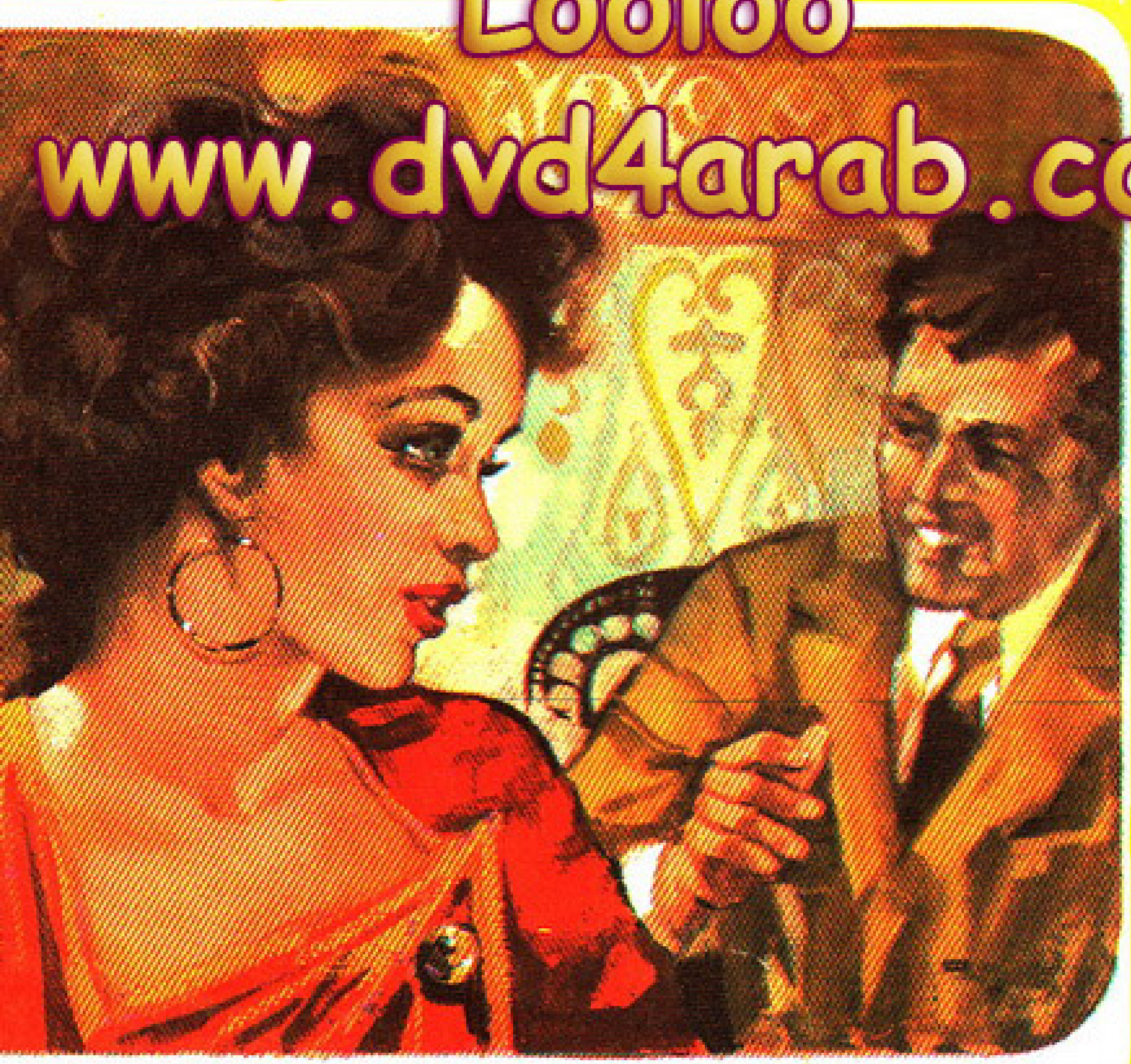
المهاجرون

صالح مرسي



الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

المهاجرون

بقلم

صالح مرسى

● الصورة الأولـــى ●

لو انك كنت مكان اى منهم لفعلت هذا الذى فعلوه جميعا ، ولقد كان الحدث الذى تجمعوا من اجله ، ربما لاول مـــرة منـذ سنوات بعيدة ، يستحق كل هذا الاهتمام .. ونحن فى مصر ، نهتم اهتماما بالغا بمسالة المظهر هذه ، حتى الفقراء منا ، يهتم الواحد منهم بمظهره أكثر من اهتمامه بطعامه ، يهتم بأن « يعزم » عليك بسيجارة هو فى اشد الحاجة اليها ، لا لشىء ، الا لان المظهر والاصول و .. و .. وكثير من الاشياء تحتم هذا ..

فما بالك بموقفهم من المجتمع ، وقد اتخذ الولد قرارا بأن يترك الكلية ، ويعمل ميكانيكيا !!

ولكى ترى الصورة كما ينبغى ان تراها ، فلقد كانوا خمسة .. اكبر الاخوة كان شابا مفلوتا ، من هـــذا النوع من الشـــبان الذين لم يفلحوا فى المدارس ، ولا الكليات ولا اقبلوا على التعليم ، ولقد كان محسن الشقيق الاكبر ، مثار ازمات تنتـــاب العائلة بين الحين والحين ، فلقد كان،وهو لايزال طالبا فى الثانوى ، يدخن ويشرب الخمر ويصادق اخوان الســوء ، ويوم أن أعلنهم محسن ، وكان هذا منذ عشر سنوات بالتمـــام والـــكمال ، بعـــزمه على الهجرة ، وترك البلد بما فيها !!.. لم تكن كلمة الهجرة قد عرفت فى بلادنا على هذا النطاق الذى عرفت به فيما بعد .. كان ذلك فى اواخر العقد الســادس من قرننا هذا الغريب الشان ، وعندما اعلن محســن قراره ذاك ، بدا القرار لاخوته وكانه الخلاص الامثل منه ومن مخازيه وفضائحه وافعاله وسوء خلقه ، ورغم اعتراضـــات البعض منهم ، ورغم دموع الام التى ذرفتها خوفا على ولدها وفلذة كبدها ، الا انها فى بعض الاحيان ، لم تك تخفى ذلك الارتياح الذى غمرها ، فان كان الولد قد خلق خسرانا ، فليخسر بعيـــدا عـــن اعين الناس ، وليتولاه الله برحمته .

كان هذا حال الاخ الاكبر ، محسن رمضان ، الذى هاجر واختفى آخذا معه كلّ ماكان يسببه للعائلة من عار .. فما بالك والاخ

الاصغر ، آخر العنقود ، مراد الرقيق الدمث ، قد أعلن فجأة هـذا القرار الذى جعل الجميع ينتفضون غضبا ، وسرعان ما اهتزت اسلاك التليفون بأحاديث لا أول لها ولا آخر .. ولما كانت الاسرة مثقفة ومتعلمة منها المهندس والطبيبة والباحثة بالمركز القـومى للبحوث ، فلقد طرح موضوع العقد النفسية والصدمات العاطفية وعقدة أوديب وما الى ذلك فى المناقشة التى دارت .

ثم كان بعد يومين أن أسفرت المناقشات ودموع الام اللى ذرفتها فى كل مكالمة تليفونية ، عن اقتراح بأن يجتمع الجميع ، لـكى يناقشوا الامر مع مراد وجها لوجه .. ويثنوه عن عـزمه المجنون هذا ! .

فى تلك الليلة ، كان أول الذين وصلوا هو المهندس حسين رمضان كبير مهندسى مصنع المسبوكات الخفيفة .. وصل حسين الى البيت تصحبه زوجته سميرة ، ابنة شهدى بك محمود ، وكيل أول احدى الوزارات الهامة ، وأن كان الان على المعاش ، الا أن عبير الوظيفة القديمة ظل عالقا به حتى يومنا هذا .

لم تكن محسنة فى البيت ساعة وصول حسين وزوجته .

كان هناك الاب والام وحدهما .. وكان عم رمضان مدبولى كعادته قد وضع نظارته الطبية على عينيه ، وخلع طاقم اسـنانه لـكى يشعر بالراحة كاملة ، وجلس أمام التليفزيون يحملق فى أحـداث المسلسل الجديد الذى شد انتباهه شأنه شأن كل المسلسلات الغثة والسمينة على السواء . والذى كان يحكى قصة فتاة صغيرة عاشت يتيمة ، فراحت الايام تتقاذفها بعنف وقسوة تفنن المؤلف والمخرج فى ابرازهما فى أكمل صورة وابشعها فى نفس الوقت !

وكانت الام ، بهية هانم ـ هذا هو اسمها فى شهادة الميلاد ـ متوترة كقائد على وشك الدخول فى معركة يريدها حاسمة بأى شكل من الاشكال .. وأية وسيلة من الوسائل ..

« هو انت يابابا مش حاتسيب التليفزيون ده ابدا ؟! »

رفع الاب رأسه نحو الباشمهندس وقال باسما :

« وعاوزنى أعمل ايه ؟! »

« تقعد معانا .. هو احنا بنشوفك الا كل سنة مرة ؟! »

« وهى دى قلطتى ياباشمهندس ؟! »

بدأ حسين وكأنه ألقم حجرا ، ألقى بنظره نحو سـميرة التى

وسلت له عيناها رسالة هامة مؤداها انها تحذرته من التعرض لابيه حتى لا يتعرض لقذائفه ، وانه مخطىء ، وانه يجب الا يفتح فمه بكلمة ، لكنه فتح فمه وقال :

« والله يابابا معندكش فكرة أنا مشغول قد ايه ؟ »

« حد عاتبك ياسيادة المدير ؟! »

كان أكثر مايثير الدهشة أن حسين ، رغم انه بلغ الثـامنة والثلاثين ، كان لا يزال يشـعر امام ابيه انه طفل ، وكان هـذا يسعده بشكل غامض ، لكنه كان يثيره بشكل واضح .. لذلك ، فلقد استدار نحو زوجته وامه التى كانت قد بدأت المحادثات حول الكارثة الوشيكة الوقوع مع زوجته سميرة ، فصـاح متدخلا فى الحديث :

« أنا رأيى انها صدمة عاطفية ، ورأيى اننا لازم نعالج الموضـوع من الزاوية دى » !

وقبل أن تفتح اى منهما فمها . دق جرس الباب ..

وكانت القادمة هى الدكتورة سعاد وزوجها الدكتور اسامه !

وعندما تدخل سعاد مكانا ، اى مكان ، فلابد أن ينشغل الجميع بمشاكلها .. ان الدكتورة سعاد شخصية من تلك الشخصـيات التى تشد الانتباه من أول وهلة ، ففيها « عرق » تركى امتد اليها من أمها .. هى طويلة القامة ، جميلة السحنة ، مليحـة الوجه ، ملونة العينين ، صفراء الشعر .. لكنك دائما تشعر أنها أقرب الى الرجال منها الى النساء .. وعلى عكسها تماما كان الدكتور أسـامة زوجها ، فهو ليس قصيرا لكنه كان ضعيف البنية ، رقيق الصوت ، مريح الملامح ، تهتز نظارته الطبية حبا فى زوجته ، فلقد كان معروفا عن الدكتور أسامة أنه يحب سعاد حتى العبادة ، وانه ظل يحبهـا طوال زمالتهما فى الكلية وبعد أن تخرجا وعملا معا فى مستشفى واحد ثم ، تزوجـا وفتحـا عيادة بروحين ... له غـرفة ولها غرفة ، له زبائن ولها زبائن .. لكن الممرضات كن مشـتركات بين الاثنين .. غير أن الغريب فى الأمر ، أن الدكتور أسامة ظل يحب سعاد بعد الزواج ، وبعد أن أصبحا متيسرى الحال ، ورغم أنهما لم ينجبا ولدا ولا بنتا !

قبل أن تلقى سعاد التحية هتفت :

« والله ياحسين وحياة عنيه أنا ماصدقت طول النهار ، حـ ـن

المستشفى للعيادة ومن العيادة للمستشفى مـ ـرجليه ورمت !! » .

ثم التفتت الى امها هاتفة : « ازيك ياماما ، واحشانى قوى بس انا زعلانه منك ، ازاى تعملى جلاش الاسبوع اللى فات ولا تبعتيش منابى .. يرضيكى ده ياسميرة ؟! »

قالت هذا ثم مالت الى الامام صائحة :

« ازيك يابابا ! »

دون ان يستدير عم رمضان هتف فى اقتضاب :

« اهلا »

كان عم رمضان مستفزا من ذلك البطل الذى بدا له غبيا ، فلقد صاح فجأة :

« جتك ستين خيبه .. انا لو منها ما احبكش ! »

تلفتت سعاد فى دهشة بالغة وتساءلت :

« هو بيشتم مين ؟! »

قالت الام :

« محمود عبد السلام ؟! »

اطلت نظرات الدهشة من عينى سعاد وارسلت الى الدكتور اسامة سؤالا صامتا هز نظارته الطبية فقال فى صوت رقيق :

« ده بطل المسلسلة الجديدة »

« انت شفتها ؟! »

« ابدا ياحبيبتى .. امتى حاشوفها ؟! »

« امال عرفت منين ؟ .. »

« كريمة الممرضة بتحكى لى عنها كل يوم »

« الله الله .. وحضرتك بقى بتتساير مع كريمة ... كويس خالص ! »

احس اسامه انه اخطأ خطأ فاحشا فهرب من نظرات زوجته المنذرة الى حيث التلفزيون ، وتململت سعاد مغمغمة :

« الساعة بقت سبعة ونص ، امال فين البيه الميكانيكى ؟! »

قال حسين مؤمنا :

« المفروض انه عارف اننا جايين الليلة علشانه ! »

هتف الاب من مكانه البعيد دون أن يلتفت :

« شكر الله سعيكم ! »

فتساءلت سميرة :

« امال فين محسنة ؟! »

وردت الام :

« زمانها جايه ! »

قبل ان يتلصص الدكتور اسامه بنظراته نحو زوجته لمعرفة ما اذا كانت لاتزال غاضبة منه ، دار المفتاح فى الباب ، ودخلت محسنة ، عبقرية العائلة ، التى لم تعرف ترتيبا فى مدرسة او الكلية بعد الاولى .. كانت محسنة فى الثانية والعشرين من عمرها . لا تزال تعيش مع ابويها ـ هى ومراد ـ لانها لم تتزوج بعد ، وهى لم تتزوج لانها لا ترضى عن شىء فى الدنيا ، فالناس ـ خاصة العرسان ـ لا يعيشون حياتهم بأسلوب علمى !!

وسرعان ما احتدمت المناقشة ، وانتهت الحلقة التليفزيونية فنهض عم رمضان ليخطف صلاة العشاء ، ولقد أختلفت الاراء فى اصل المشكلة ، واذا كان حسين رايه أن القرار سببه ازمة عاطفية عنيفة ادت بمراد الى الياس الشديد ، الا ان راى سعاد كان يختلف ، كانت ترى أن المادة قد أصبحت مسيطرة على البشر ، وأن الولد يرى اقرانه وهم ينفقون عن سعة بعد ان اصبحت : « الفلوس فى أيدين اللى يسوى واللى مايسواش ! » ... وهى تعلم ، كما يعلم الجميع ، ان صديقه الصدوق هو فهمى عبد المتعال ، ابن عبد المتعال الجيزاوى ، الذى يملك وكالة هائلة لبيع جميع انواع البضائع ، ويقتنى ثلاث عمارات ايجار الشقة الصغيرة فى اى منها لا يقل عن سبعين جنيها ، وأن فهمى بالذات يملك سيارة مرسيدس آخر موديل ، وأن مراد يريد ان يقلد صديقه ، ويكسب مالا .. لذا فلقد قرر ان يترك كلية الآداب قسم الفلسفة .. وان يعمل ميكانيكيا ، وأن العلاج يتلخص فى ضرورة ان يساهم كل منهم بمبلغ بسيط ، يأخذه مراد فوق مصروفه فيحل الاشكال .

اما محسنة ، اقربهم الى مراد واشدهم اختلافا معه ، فلقد قالت فى اختصار :

« انا رايى ان اللى بيعمله مراد ده مش اكتر ولا اقل من استهتار ! »

ودق الجرس ، وكان لابد وان يكون الطارق هو مراد .. فهو الوحيد الذى لم يات بعد .. غير ان الطارق لم يك « مرادا » ، بل كان ساعى البريد يحمل تلغرافا آتيا من [illegible] .. كان التلغراف

مكتوبا بالانجليزية وكانت ترجمته « أصل يوم ١٦ » .. والتوقيع محسن !

●●●

أشرقت الساعة على الثامنة مساءوكان الوجوم يسود البيت .. وكانت مشكلة مراد قد تراجعت لتفسح المكان لتلك المفاجأة المذهلة .. ان محسن المهاجر ، الذى لا يعرف أحد عنه شيئا ، الذى سافر الى ايطاليا منذ عشر سنوات ثم اختفى كأنه ذاب ، كأنه تبخر ، كأنه مات .. لم يك احد يعـــرف عنه شيئا ، ولم يك هو يعنى بكتابة خطاب حتى ولو من سطر واحد يقول فيه أنه لازال على قيد الحياة .. ثم يأتى منه تلغراف بأنه سيحضر يوم ١٦ ، ولقد كان هذا اليوم بالتحديد وعلى وجه الدقة هو يوم ١٦ .. فمتى يأتى محسن ، فى أى ساعة ومن أي بلد .. وعلى أى طائرة .. لم يكن هناك ماينبىء بشىء من هذا .

بعد لحظات صمت طالت الى دقائق ، انتفض الاب مازحا :

« وبيقولوا فى المسلسلة ان زمن المعجزات انتهى » .

وجاشت نفس بهية ـ الام ـ بدموع لم تستطع أن تمنعها !!

« ودانا كنت مريحة نفسى على أنه مات .. ياحبيبى يابنى »

وقال المهندس حسين :

« هو ده محسن ، مفيش فايدة فيه ! »

أما الدكتورة سعاد ، فلقد همست فى خوف !

« محسن أخويا جاى ؟! ... مين يصدق ؟! »

ونهضت محسنة الى المطبخ قائلة فى تذمر :

« تو مافتكر ان له أهل ؟! »

ثم ساد الصمت .

وقع الخبر على الجميع وقوع الصاعقة ، كانت سعاد تفكر فى مركزها الاجتماعى كطبيبة ، وكيف يمكن ان تؤثر عليه شخصية محسن الذى لا يعرف حرمة ولا احتراما ولا يخشى ربا أو انسانا .. وغرق حسين فى صمته وكان يختلس بين الحين والحين نظرة من زوجته ، فماذا عساها تقول اذا ماعرفت أن محسن ذات يوم رفع السكين فى وجه امه كى يحصل منها على المال ، أكثر ما أصبح يخشاه ولم تمض دقائق على وصول تلك البرقية ، ان يأتى محسن كى يفرض عليه اتاوة كتلك التى كان يفرضها قبل سفره على امه

وابيه .. أما الاب فلقد تبسم معبرا عن نفسه مائلا نحو زوجتـه قائلا فى سخرية :

« ابنك جاى يام محسن ! »

ولم ترد الام ، عادت تمسح دمعة حنين فرت من عينيها بالرغم منها ...

فى التاسعة مساء كان القلق قد استولى على الجميع ، عندما دق جرس الباب انتفضوا توترا . فى خيال كل منهم صـورة لما أصبح عليه محسن ، حتى أسامة وسميرة اللذان لم يرياه كان فى خيال كل منهما صورة لأخ فاسد متلاف اسود الاسنان من كثرة التدخين ، نابت الذقن بلا اهتمام ، مهمل الملابس ، طيب القلب حقا ـ حسب مايروى عنه من أفراد العائلة ـ لكنه فى الشر لايطاق ..

دق جرس الباب ، لكن الآتى لم يكن محسنا ، كان مرادا .

●●●

قالت سعاد فى عتاب :

« انت مش عارف اننا كلنا جايين النهـــاردة مخصـوص علشانك » .

« آسف يا أبله » .

قال المهندس حسين :

« انت معندكش احترام للمواعيد ؟! »

« غصب عنى والله يا أبيه » ..

ورشفت محسنة من كوب الشاى الذى صنعته لنفسها وهى تقول :

« طبعا الورشة شغلتك ! »

فنهض مراد ، وكان يبدو شديد الحزن قائلا :

« انا ماكنتش فى الورشة » ..

ترك الجميع واتجه الى الداخل ، صاحت فيه سعاد :

« على فين يا أسطى ؟! »

توقف مراد فى تحد ، نظر الى اخته ، ازداد الحزن على وجهه ، وقال :

« حاغير هدومى يادكتورة ! »

فصالح ابوه مرحا :

« اخوك جاى النهارده »

استمر مراد فى سيره نحو غرفته وهو يدمدم

« اهلا وسهلا »

لكنه توقف فى منتصف الطريق ، ضم مابين حاجبيه ، استدار عائدا وهو يحملق فى حسين ، ثم خفض بصره نحو والده وتساءل :

« اخويا ؟ .. اخويا مين ؟! »

قالت الام فى لهفة :

« اخوك محسن » ..

صاح مراد ملوحا بذراعيه فبانت اظافره متسخة غير نظيفة ، قال :

« ياجاه النبى .. هو لسه فاكرنا ؟! »

وكان لابد وان يتسلى المجتمعون بالحديث فى المشكلة الاصلية فى انتظار الحدث الهام الذى سيطر على جو البيت تماما .. قدمت الام اطباق المهلبية المحشوة بالمكسرات .. وشرب البعض شايا وشرب البعض قهوة وشرب البعض مياها غازية .. ولكن ، رغم كل هذا كان الوقت يمضى ومحسن لا يحضر ، سالوا المطار عن كل الطائرات التى ستصل الليلة ، فعرفوا أن عددها تسع طائرات سوف تصل من جميع أنحاء المعمورة .. كان أول المقتحمين للموضوع هو المهندس حسين الذى قال :

« ايه حكاية الورشة دى بقى ياسى مراد ؟ »

اعتدل مراد فى جلسته وراح يتحدث بيديه وذراعيه ولسانه معا ، قال :

« شوفوا بقى ، بصفتى المتهم ، انا حاقول لكم على كل حاجة ، وكل اللى عندى .. انتوا عارفين فهمى .. فهمى صاحبى من اكتر من عشر سنين ، اتخرج من كلية الهندسة السنة دى ، ابوه اداله قرشين علشان يبدأ بيهم حياته .. فتح ورشة ، وانا ، غاوى عربيات ، غيه ، هواية يعنى ، باحب العربيات والسواقه ، والموتور والشاسيه وكل الحاجات اللى بتشيلكم دى ، فى يوم ماكانش فهمى فى الورشة وانا كنت مستنيه ، جت عربية الصنايعية ماعرفوش يصلحوها ، قمت انا وصلحتها ، الراجل دفع ٣ جنيه ، فهمى اداني منهم جنيه وقال لى ان ده حقى .. حسبت الحسبة فى دماغى .. اذا كنت انا كسبت فى عشر دقائق جنيه كامل ، يبقى لو وقفت فى الورشة طول النهار حاكسب كام ؟! .. باقول للواد فهمى الحكاية

دى ، قال لى امسك الورشة وخد خمسين فى الميه .. اصل ابوه غنى وهو عنده شغل كتير .. لو حسبناها بالقلم الرصاص والورق ، حالاقى ان مكسبى فى اليوم مش حايقل عن خمسة جنيه ، ده لو مااشتغلناش ، يعنى فى الشهر ١٥٠ جنيه ، بابا اتحال على المعاش بعد ٤٢ سنة خدمة ، وماهيته ميت جنيه الا تلاتة صاغ واربعة مليم » .

وتوقف مراد عن الحديث ...

وساد الصمت لثوان .

كان منطق مراد مستفزا ، وكان اكثر مااستفز الجميع فيه انه منطقى ، حسبت سعاد الحسبة فوجدت ان دخلها من العيادة زائد المرتب ، خمسة جنيهات فى كل يوم ، وقال حسين لنفسه ان مرتبه الاصلى – بعيدا عن البدلات – يقل عن هذا ، وفكرت زوجته سميرة فى أن تحرضه على ان يستقيل ويعمل ميكانيكيا ، وضحكت لانها تصورت الناس وهم ينادونه : يا أسطى حسين ! ... وبدت ضحكتها للجميع غريبة فقالت لتدارى حرجها :

« شر البلية مايضحك ، اقول ايه لبابا : اقول له ان اخو جوزى اشتغل ميكانيكى ؟ »

صاح حسين فى انفعال :

« انت يا استاذ بتفكر برجليك مش براسك »

وقالت سعاد ساخرة :

« طب ماتقوم تشوف لنا العربية !! »

فرد مراد :

« ماعييش عده !! »

وصرخت محسنة :!

« طب يا اخى فكر فى العلم شويه ، دانت فى سنة تالته ، يعنى قدامك سنة ! »

« مش عاوز اكمل » .

« ليه ؟! »

« مش باحب الفلسفة » .

« أمال دخلتها ليه ؟! »

« انا مادخلتهاش .. ده مكتب التنسيق اللى رمانى فيها !! »

صاحت سعاد :!

« انت ناقصك فلوس ؟! » ..
« لا ! »
هتف حسين :
« انت أخدت صدمة عاطفية يامراد ؟! »
« عرفت منين ؟ ! »
« هو ده السبب ؟! »
« ابدا ! »
« امتى حصلت الصدمة دى ؟! » .
« من ساعة !! »
« سابتك ليه ؟! »
وجاء صوت مراد دامعا وهو يقول :
« عشان مش قادرة تحب ميكانيكى !! »
ودق جرس الباب .
وكان القادم هو محسن ، بدمه ولحمه وشحمه ..

الصورة الثانية

كانت الاسرة ، بكامل هيأتها ، تجتمع فى ذلك اليوم الموافق ١٦ من فبراير عام ١٩٧٧ لاول مرة منذ عشر سنوات .

كانوا جميعا منفعلين ، وكانوا جميعا سعداء ، وكانوا جميعا أسرى ذلك الاحساس المكون من الدهشة والتساؤل والحيرة ومحاولة الفهم !!

لم يك محسن هو محسن الذى هجرهم منذ تلك السنوات العشر .. كان رجلا آخر .. وكان يدخن الغليون بدلا من السجائر !

غير أن الغريب فى الامر ، ان أكثر الجميع سعادة وانفعالا كان الاب .. عم رمضان الذى اطلق عليه الاولاد لقب « هولاكو » لعظم احساسهم بصلابته .. راح رمضان يقدم لمحسن الشاى والقهوة بنفسه ، قدم له طبق المهلبية ، ولم يجلس بجواره ابدا ، كان دائما ، يجلس امامه ويطيل النظر اليه فى صمت وكانه لا يصدق ، ان هذا الجالس أمامه ، هو ابنه محسن !!

كان الجو مشحونا بعاطفة جياشة ، والجميع فى حالة من الوجد يندر أن يصاب بها الانسان أكثر من مرة فى حياته كلها .. غير أن محسن بالذات ، كان يبدو وكانه فى حفل استقبال رسمى ... كان هادئا ، صامتا ، متأملا .. كان انيقا مهذبا يبدو عليه العز ! هتفت به أمه وكانت تجلس الى جواره :

« أنا حاجهز لك أوضة نوم ابوك .. هو اللى حكم رأيه انك تنام فيها » .

كان هذا بالذات ، تنازل عظيم قام به عم رمضان ، وكان الرجل يبتسم فى وجه ابنه ابتسامة واسعة اظهرت بوضوح فمه الخالى من الاسنان فبدا وكانه طفل لوفرة سعادته .. وابتسم محسن قائلا :

« كده ؟! »

قالها فى رقة . وصمت .

وظن حسين أن أخاه لم يفهم أن شيئا هائلا قد حدث ، فقال :

« هيص ياعم .. دى ماحصلتش عمرها !! » .
ومالت سعاد الى الامام :
« مش عيب يامحسن ماتبعتش ولا جواب ولا حتى كلمة من يوم ماسافرت ؟! »
قال محسن :
« معلهش ياسعاد .. انا كنت عاوز افاجئكم ! »
فهتف عم رمضان فى سعادة :
« وآديك فاجئتنا فعلا !! »
وساد الوجوم الجميع ، فلقد كانت عينا الاب دامعتين !!
غير أن العواطف ، مهما كانت عظيمة ، ومهما بلغت درجة حرارتها ، لابد لها ان تبرد ذات لحظة .. ولقد كان لابد وأن تهدأ عواطف الجميع وأن يتحدث محسن عن نفسه وأن يحكى أخباره ..
كان قد تزوج وأنجب ولدين وبنتا .. رامى وتامر ولمياء .. وهو يسكن بيتا يملكه وله حديقتان واحدة امامية والثانية خلفية ، ثم انه يملك سيارتين ، واحدة له والاخرى لزوجته ، وهو الان صاحب شركة للسياحة ، ولقد جاء الى مصر كى يبحث مع المسئولين امكانية انشاء قرية سياحية فى الفيوم .. ثم راح محسن يعدد مزايا المشروع ، وان اهم مافيه ان زبائنه لن يكونوا كثيرى العدد ، لان القرية ستنشأ لهؤلاء الذين يريدون أن يستجموا بعيدا عن الضوضاء ، وسط الماء والخضرة ، وهؤلاء هم الذين يملكون أموالا طائلة ..
غير أن المفاجأة كانت ، أن ثمة موعدا فى صباح اليوم التالى كان قد تحدد بالتلكس مع وزير السياحة !
مالت سميرة على أذن زوجها وهمست :
« ماتخليه يجيب لك عقد عمل ! »
وتحدثت سعاد عن عقد العمل الذى جاءها من الكويت بسبعمائة دينار ، اى الف واربعمائة جنيه فى كل شهر ، وانها مترددة ، وهى لا ترغب فى الهجرة من مصر .. واطلقت محسنة قذيفة موجهة الى سعاد :
« وتهاجرى ليه يا ابله اذا كان الخمسة عين أتحققوا ؟! »
كان الجميع يعلمون ان أهم بنود الخمسة عين هذه قد تحققت بالفعل ، فسعاد تملك عربة وعمارة وعيادة وهاهو العريس يجلس بجوارها ولم يبق سوى العزبة .. وسرعان ما توتر الجو فاعتدل

مراد قائلا :
« كل واحد حر يحقق نفسه وحياته بالاسلوب اللى يعجبه » .
كان الرد حاسما ، وان كان الجميع قد احسوا ان مرادا يدافع عن موقفه شخصيا .
وأدلى الاب برايه فى الموضوع ، قال فى اقتضاب :
« مش كفاية واحد هاجر وسابنا ؟! »
واطلقت محسنة رصاصة :
« وليه مانقولش ان بلدنا اولى بينا ؟! »
كان السؤال وطنيا . وكان قاسيا .. فساد الصمت ؟

●●●

ولا يعرف احد من هو الذى اطلق اقتراح العشاء ..
كانت بهية هانم قد استعدت بعشاء خفيف للاولاد ان شعر احدهم بالجوع .. لكن وجود محسن كان يستلزم اكراما اكثر ، ورغم انه قال ان الامر عنده سيان ، وانه لا يتناول سوى برتقالة واحدة فى العشاء . الا ان سميرة همست فى اذن حسين فى تحريض حار :
« اعزمه على كباب .. اعزمه على كباب ! »
وقع حسين لثوان فى حيرة ، كانت هذه هى المرة الاولى التى تطلب فيها زوجته مثل هذا الطلب ، خاصة بالنسبة لاهله بالذات ، وكم من مشاجرات وعراك دار بينهما لذلك الحرص الغريب الذى تتمتع به سميرة ، ولقد كانت سميرة حريصة ولكنها ليست بخيلة ، ولان حسين يعرف زوجته جيدا ، فلقد أيقن أن وراء هذا الطلب هدف ما ، ولانه يعرفها جيدا ، فلقد أدرك أنه لابد وأن تكون وراء الهدف مصلحة ، لذلك ، فلقد اندفع يقول :
« اكيد الكباب وحشك يامحسن !! »
« ليه .. ؟! »
قالها محسن فى بساطة محيرة ، فانبرت سعاد وقد ادركت مغزى الهمسة التى همستها سميرة فى أذن شقيقها ، ولانها تعرف أن سميرة سوسة تعرف من أين تؤكل الكتف ، فلقد ادركت بذكائها أن وراء الامر أمر ، فصاحت وصوتها يعلو فوق كل صوت :
« كباب ايه ياحسين ، تلقى كندا فيها كباب أكيد ، لكن اللى نفسه فيه قطعا الفول والطعمية !! »

قال محسن :
« الفول والطعمية فى كندا بيتعملوا احلى من مصر !! »
وتشابكت الاصوات وتعالت فى مزايدة انتصر فيها حسين عندما اقسم يمينا غليظا ، بان يعزم الجميع على كباب وكفته ، وكانت نظرات زوجته تشجعه .
ولان الوقت كان متأخرا ، وطلب الطعام بالتليفون قد يأخذ وقتا فلقد تطوع مراد بان يذهب بنفسه لاحضار العشاء بسيارة سعاد — وكان فى هذا ارضاء لكل الاطراف — وهب حسين مخرجا حافظة نقوده لكى يعطى لمراد الحساب فقال هذا :
« لما ارجع يا ابيه نبقى نتحاسب !! »
« انت عارف حاتجيب قد ايه ؟! »
ضحك مراد فى مرارة وقال :
« الحسبة مش كبيرة ، اب وام فرحانين واولادهم الخمسة مش حياكلوا كتير ! »
غاب مراد نصف ساعة فتح فيها الموضوع موضوع مراد والعمل فى ورشة صديقه فهيم ، وكان طبيعيا ان يشترك محسن فى المناقشة ، وكان واضحا ، ان لرايه الذى كان يبديه احترام بالغ .. واتفق الجميع تماما ، على أن مراد مخطىء . فكيف يترك الكلية وهو فى السنة الثالثة ، ليعمل فى وظيفة لا تليق بمقام الاسرة الاجتماعى؟!
وعندما عاد مراد كان يحمل كمية لا باس بها من الطعام ، وتجمع الكل حول المائدة ، حتى محسن ، انفكت عقدة وقاره فأكل بيديه ، وتحمس وغمس الخبز فى الطحينة ، وضحك الجميع ، ونسى حسين ان يدفع الحساب لمراد .. وكان مراد يعرف ان شقيقه ، لابد سوف ينسى !!
أغلقت سميرة باب غرفة محسنة وهتفت هامسة فى وجه زوجها :
« اوعى تسيبه ! »
« ايه الحكاية ياسميرة .. انا مش فاهم !! »
« خليه يجيب لك عقد عمل !! »
« وهى الحكاية سهلة كدة ؟! »
« ليه لا . مش بدل ما انت طافح الكوته صبح وبعد الظهر ، وايشى مصنع وايشى مكن وايشى اجتماعات .. خليه يجيب لك

عقد عمل . ! »
بدا السهوم واضحا فى وجه حسين عندما قال :
« ونسيب مصر ياسميرة ؟! »
« واحنا كنا اخدنا منها ايه ؟! »
بدا على وجه حسين انه افحم تماما ، فقال :
« طب مش لما الاقى فرصة مناسبة ؟! »
« اسمع كلامى قبل سعاد ماتطلب منه الطلب ده !! »
وتنبه حسين فقال مؤمنا :
« معاكى حق ! »
ابتسمت سميرة تشجيعا له ، وكافاته بقبلة فوق شفتيه .

●●●

فى المطبخ كان الاب يقف مع مراد الذى كان يعد عصير البرتقال لاخيه ، كان يبدو على الاثنين أنهما سعيدان ، فلقد راحا يضحكان ويتبادلان القفشات ، عندما توقف الاب فجأة ناظرا نحو ولده الاصغر ، فالتفت نحوه مراد وفى عينيه نظرة حزينة ، قال الاب :
« ثريا سابتك صحيح يامراد ؟! »
« أيوه يابابا ! »
« قالت لك ايه ؟! »
« أبدا .. هى ماتقدرش تحب ميكانيكى .. دى الحكاية بس !! »
« انت زعلان ؟! »
« لا .. »
« أمال ايه ؟! »
« مقهور !! »
وتوقف الاب قليلا ، وتلاعب لسانه فى فمه الخالى ببطء ، ثم قال :
« ربنا يعوضك !! »
والتفت الولد نحو أبيه ، كان عم رمضان قد خطا نحو باب المطبخ فتوقف ، وواجه كل منهما الاخر وتساءل مراد فى حزن بالغ :
« تفتكر ؟! »
« بكره تقول ابويا قال !! »
« تعرف يابابا ! »

« مالك ؟! »
دمعت عينا مراد وقال :
« أنا زعلان قوى ! »
وغادر الاب المطبخ دون أن يطرق الموضوع الاصلى بكلمة واحدة !

●●●

« وحاتسيبينى لوحدى ياحبيبتى ؟! »
هكذا هتف أسامه فى أذن سعاد هامسا ، فالتفتت سعاد نحوه قائلة فى تأنيب :
« ماقلتلك انى حابعت لك عقد عمل من هناك ! »
« وافرضى مالقيتش مكان ؟! »
« حالاقى !! »
« افرضى يعنى ؟! »
أرسلت اليه نظرة نارية فخفض بصره لكنه قال :
« افرضى يعنى افرضى ؟! »
« ساعتها حابقى ابعت لك دعوة علشان تقدر تدخل الكويت ، وأديك فى العيادة حاتاخد الزباين بتوعى !! »
« وحاتسيبينى وحدى ياحبيبتى ؟! »
صاحت سعاد على مسمع من الجميع وقد استبد بها الغضب :
« أسامه . وبعدين معاك ؟! »
وقدم مراد عصير البرتقال لاخيه قائلا :
« منور يا آبيه ! »
تناول محسن الكاس ناظرا الى مراد فى ابتسامة بدت مفعمة بالشوق ..
« تعرف انك كبرت يامراد ؟! »
قال مراد :
« بذمتك ؟ »
كان يبدو ساخرا ، فتجهم محسن ولاحقه مراد :
« انت اللى ماكبرتش .. زى ماانت ، زى ماشفتك آخر مرة ، لما سلمت عليك عند الباب ده ، وبوستنى وقلت لى خلى بالك من بابا وماما انت بقيت راجل ؟! »
« وهم الرجاله يسيبوا كلياتهم ويشتغلوا ميكانيكية ؟! »

كانت هذه هى الطلقة الاولى فى الحوار الذى اجتمع من أجله المجتمعون ، طلقة اطلقها محسن لينبرى الجميع عدا محسنة وقد ايقنوا ان راى محسن يميل الى رايهم ، فى تفنيد المشكلة ، فى وصفها، فى تضخيم الجرم الذى سوف يقترفه الاخ الاصغر فى حق العائلة، وكان الغريب فى الامر ان الاب ظل صامتا لا يبدى رايا ، ولقد استفز هذا ابنته سعاد التى صاحت :
« ماتتكلم يابابا ! »
« أتكلم أقول ايه ؟! »
قال حسين :
« تقول رايك ! »
« ماانتوا بتقولوا رايكم ، هو انتم مش اخواته ؟ »
استفز هذا الكلام محسن ، على مايبدو ، فقال :
« هو انت مش أبوه يا أخى ؟! »
فرد الاب :
« مانا كنت ابوك برضه يامحسن .. كنت اخذت رايى قبل ماتهاجر ؟! »
وساد الصمت تماما !
وتشاغل محسن باشعال الغليون ، وكان يضع ساقا فوق ساق!

●●●

لكن هذا الصمت لم يعجب سعاد التى صاحت :
« اذا كانت صاحبتك سابتك النهارده ، تفتكر فيه واحدة بنت ناس حاترضى تتجوزك .. روح اتجوز شغالة بقى علشان تكمل ! »
وقال حسين :
« بصراحة أنا ما اقدرش ألومها .. وأى بنت محترمة لازم تعمل اللى عملته صاحبتك ! »
واطلقت محسنة دفعة من الطلقات السريعة ؟
« على العموم مش مهم انها تسيبه ، ده أحسن له لانه عرف معدنها ، المهم انه مايهربش من المعركة ، البلد محتاجة لمثقفين ومتعلمين ، واذا كانت الميكانيكا عاجباك ، استنى لما تتخرج الاول وبعدين اشتغل ان شاء الله عتال .. انت حر ! »
وتوسلت الام فى كبرياء التركى المفلس :
« ياولد اسمع الكلام .. يعنى اخواتك كلهم غلط وانت اللى صح ؟! »

ولم يرد مراد !!

ظل طوال الوقت صامتا ، يسمع ولا ينطق . ولم يعد باقيا الا الرأس الكبيرة ، صاحب شركة السياحة والمشاريع التى سيتباحث فيها غدا مع وزير السياحة ، التفت محسن نحو شقيقه الاصغر ، وعاد الى اشعال الفليون فتكاثف الدخان فى المكان وكانت له رائحة زكية .. اطفأ عود الثقاب وقال :

« شوف يامراد .. ! »

قاطعه مراد باسما :

« سيبك منى انا يا آبيه ، انا عاوز اتكلم معاك . »

« امال انا باعمل ايه ؟! »

« لا .. انا عاوز اعرف منك كل حاجة ، ازاى بدات ، ازاى نجحت ... و ... و ... »

صاحت محسنة قائلة :

« بدأ من الصفر طبعا ! »

« ازاى ؟! »

بدت الدهشة على وجوه الجميع ، واستدرك محسن فى رحابة صدر :

« بدات من الصفر يامراد .. اشتغلت جرسون ومرمطون وخدام !! »

هتف مراد مبهورا :

« يعنى تشتغل خدام فى بلاد بره يا آبيه ، وتبقى مش عيب ... ولو اشتغلت هنا ميكانيكى تبقى عيب ؟! »

●●●

كان هذا هو ختام الامر كله ..

وبعد دقائق نهض الجميع مسلمين راضين سعداء ، وقال محسن وكانه تذكر شيئا :

« على فكرة ياجماعة .. هداياكم فى الشنط .. والشنط فى اللوكاندة ، وبصراحة انا تعبان قوى الليلة !! » .

وكان الجميع سعداء بحق !

غير ان سميرة سالت زوجها وهى تجلس الى جواره فى السيارة :

« طب هو تعبان الليلة ، لكن ماقالش امتى حايدينا الهدايا ؟!! »

● الصورة الثالثة ●

فى اليوم التالى لهذا اليوم الغريب الملىء بالاحداث الباعث على الدهشة .. كان افراد الاسرة ، كل فى موقعه وبيته وعمله ، غارقين لآذانهم فيما كان من احداث .. ولقد اكتشفوا جميعا ـ ودون استثناء ـ ان المشكلة الرئيسية التى من اجلها اجتمعوا وتجمعوا فى البيت الكبير ، وهى مشكلة مراد ، لم تحل .. وان حضور محسن طغى على كل شىء واحتل جماع التفكير .

غير ان اكثر الجميع توترا ، كانتا سميرة ، زوجة المهندس حسين والدكتورة سعاد !

ففى الصباح التالى ، ورغم ان المناقشة بين سميرة وحسين لم تكف حتى داعب النوم جفون كل منهما فانكمشا والتصقا تحت الاغطية .. الا ان سميرة ، قبل ان تلقى على زوجها تحية الصباح التى تعودها منها ، قالت :

« ناوى تعمل ايه ياحسين ؟! »

كان واضحا ، من العينين المنتفختين والملامح المهدلة ، ان سميرة لم تنم جيدا فى تلك الليلة .. كما كان واضحا من نبرة الصوت وجرسه ، ان الفكرة ـ فكرة عقد العمل ـ قد اختمرت فى رأسها تماما .. غير ان حسين تساءل بدوره :

« اعمل ايه فى ايه ياسميرة ؟! »

كان حسين بالقطع يعرف « فى ايه » ، ولقد كان مثلها قد قضى الليل نصف نائم يفكر فيما آل اليه حال شقيقه الفسدان بعد ان هاجر ، واذا كان محسن الذى « باظ » فى المدارس ولم يفلح قد كون هذه الثروة التى لم يذكر قدرها ، لكنك تستطيع ان تخمن حجمها بالحساب والمنطق لتصل ـ على الاقل ـ الى ربع مليون دولار ـ تلك العملة السحرية الصعبة القادرة تماما على كل شىء .. فان ما آل اليه حاله ، وهو الذى مقق عينيه فى المذاكرة ، وحصل على بكالوريوس الهندسة ، ونجح فى عمله وتسلم وظيفة تؤهله لان يصبح ذات يوم رئيسا لمجلس ادارة .. هذا الذى وصل اليه

لم يك يبشر بشيء من هذه الدولارات أو حتى بعضها ، وكان الامر يبدو له ــ اذا لم يخط تلك الخطوة التى تحرضه عليها سميرة ــ خاسرا فى البداية والنهاية .. بل انه فكر فى الثالثة صباحا ، وكان قد استيقظ فجأة ودون أسباب معروفة ، واضاء نور الاباجورة المجاورة له راشعل سيجارة ، ونظر الى سميرة فرآها تغط فى النوم وقد انسال شعرها الفاحم حول راسها ، واتسعت فتحة قميص النوم عن صدرها ، مما دفع بفكرة شيطانية الى راسه ، فكرة ليس باعثها الحب بقدر ماكان الباعث اليها هذا التوتر العصبى الذى كان يجتاحه اجتياحا .. فكر فى ان الموقف يبدو محيرا حتى بالنسبة للولد مراد ، وان هذا الموقف أصبح يحز فى نفسه ، فان الحسبة اذا ماقارن نفسه بمراد أيضا ، ستصبح خاسرة .. فما قيمة أن يصبح مديرا وهو أفقر من مجرد ميكانيكى سيارات ؟!

وهو لم يفكر فى أن يعمل ميكانيكيا بطبيعة الحال ، الا انه فكر فعلا فى أن يستقيل ويفتح ورشة ، واذا كان مراد بمعرفته الفجة بهندسة السيارات يستطيع أن يكسب فى اليوم خمسة جنيهات ، فانه هو يستطيع أن يكسب ضعفى ، وربما ثلاثة اضعاف هذا المبلغ .. ولقد انتبه على صوت سميرة ويديها فى وسطها وكلماتها كالأحجار المقذوفة :

« بقى انت مش عارف انا باكلمك على ايه ؟! »

كان كوب الشاى أمامه فرشف منه رشفة . لكنه لم يقرب البيض ولا الجبن .. اشعل سيجارة ثم سالها فى وضوح بالغ :

« طب انتى عاوزه ايه دلوقت ؟! »

« مانا قلت لك ! »

« أكلمه على عقد عمل وانا ماعرفش ان كان يقدر والا لا ؟! »

« اساله الاول .. ولما يقول لك لا تبقى عملت اللى عليك ! »

غير انه فاجأها بان مال الى الامام محملقا فيها فأجلستها نظرته على المقعد المقابل له :

« واذا فتحنا ورشة هنا ، مش يبقى اضمن ؟! »

« هو انت أقل من محسن ؟! »

« مش دى القضية ! »

« وليه ماتهاجرش زى بقية الخلق مابتهاجر .. عمرك سمعت على واحد عليه القيمة وبيفهم هاجر ورجع تانى ؟! » .

« ياسميرة ... »

قاطعته :

« كلهم بيرجعوا شايلين قفة الدولارات على اكتافهم زى اخوك !! »

هم حسين بأن يرد فصاحت سميرة :

« ماتخلينا نخلص من البلد دى بقى يا اخى ؟! »

افحم حسين تماما ، فطلب مهلة ليتحين الفرصة ويكاشف شقيقه . لكن سميرة رفضت ، كان من رأيها انه لابد ان يبادر فيسبق سعاد ، وان يقتنص الفرصة ، وان يتحرك بدلا من كسله وخموله اللذين اشتهر بهما !

قال حسين مستسلما :

« حاضر .. بالليل حاروح له ! »

●●●

غير ان الامر كان مختلفا مع سعاد ، ولقد كان شانها اذا ماانشغلت بقضية ما ، ان تستغرق فى الصمت والتفكير ، كما كان شأن الدكتور أسامة أن يقدم لها الشاى فى الفراش ، وان ــ اذا ما رآها على هذه الحالة ــ يصمت ولا يناقش ولا يسال ، والا ناله ما لا يحب من لسانها الذى ينبرى تاليا قاموس التقريع كاملا .

قدم لها الشاى ، وامعانا فى الاستلطاف ، جهز الفطور ووضعه فوق الصينية بشكل منسق تماما ، وحمله اليها باسما .. كان يحمل لها عرفانا هائلا ، فلقد امتعته ليلة الامس رغم كل ما كانت تفكر فيه وتعانى منه ، وسرى دفء حبها الى قلبه فاذا به يذوب ذوبانا !

فى صمت تناولت سعاد الافطار ، وفى صمت دخلت الحمام وارتدت ملابسها وصففت شعرها ووضعت مكياجها وحملت حقيبتها واتجهت نحو باب الشقة فى الموعد الذى يغادران فيه البيت فى كل صباح .. وكان منطقيا ان يهرول أسامة خلفها ، وان يفتح لها الباب ، وان يهبط معها الى السيارة ، ويجلس بجوارها فى صمت !

ودائما ما كانت حركة المرور مرتبكة فى هذا الوقت من اليوم ، ودائما ما كانا يتسليان فى الاشارات ووسط مشاحنات السيارات العابرة فى الطريق على شبر ارض ، بالحديث عن المرضى والمستشفى والمشاكل والعلاج .. و .. و .. ولكن سعاد ظلت صامتة طوال الطريق ، حتى اذا وصلا الى بداية كوبرى ابى العلاء ،

حيث يصبح المرور فى هذه المنطقة نوعا من الهستيريا الميكانيكية : وحيث يطول الانتظار الى اكثر من ربع ساعة حتى تجد لنفسك ممرا بين سيارة واتوبيس يقوده سائقه معتمدا على رعب أصحاب السيارات منه .. هناك ، فى منتصف شارع الزمالك ، نطقت سعاد لاول مرة :

« أنا حابعت للسفارة بالموافقة ! »

دق قلب أسامة وان كان قد استعد لهذا الموقف . قال :

« انتى مصممة على رأيك ياسعاد ؟! »

« شوف ، احنا نجرب سنة ، فلحنا وعملنا قرشين يادار مادخلك شر ، مافلحناش ،نبقى ماخسرناش حاجة ! »

« وحاتبعدى عنى ياروحى ؟! »

« على فكرة .. الست بتاعة الطحال ، حابعتها لك النهاردة !»

أيقن أسامة ان لا فائدة ، وأن القرار قد اتخذ ، وأن زوجته تحول مجرى الحديث الى عمل كل يوم ، فالتفت نحوها بكليته ،وكانت هى تقود السيارة متجهمة ، قال :

« بس على شرط تبعتى لى عقد عمل ! »

« تخلى بالك منها ، دى وليه مجنونة ، حاول تعمل لها اشعة وتشوف ايه الحكاية .. انا شخصيا مش عارفه اعمل معاها حاجة ! »

كانت قد عادت الى السيدة المريضة بالطحال ، فقال اسامه مستسلما :

« يمكن عاوزه عملية ! »

« ماهى محتاجه لعملية ، لكن هى اللى رافضه ! » .

« قولى لها ! »

« قلت لا ! »

« فهميها ! »

« مابتفهمش ! »

« وضحى لها الامر .. دى ممكن يجرى لها حاجة ! »

فى ملل صاحت الطبيبة :

« عملت اللى على . لكن دماغها ناشف . حاعمل لها ايه ؟! »

كانت السيارة قد زحفت حتى وصلت الى بداية الكوبرى ، وكان هناك اتوبيس يدخل الكوبرى منحرفا عن المسار ، منطلقا

وسط السيارات غير مبال ، فتوقفت سعاد لثوان كيما تفسح الطريق لامبراطور الطريق ، لم تسب وتلعن كعادتها ، بل قالت :

« لو كان عندنا عربية عليها القيمة ، ماكانش سواق الاتوبيس هوب ناحيتنا ! » .

همس أسامة مستسلما :

« طب ماتروحى تسلمى الرد بنفسك للسفارة بدل ما تبعتيه مع حد ؟! »

أجابت : « ماهو ده اللى انا حاعمله ! »

ثم أردفت : « ما تنساش أننا حانروح عند بابا وماما الليلة ! »

●●●

كان واضحا أشد مايكون الوضوح .. أن مشكلة مراد قد تراجعت تماما ، وان كل من أفراد العائلة قد نفض يده منها ماعدا شخص واحد .. هو محسنة رمضان ، الباحثة بالمركز القومى للبحوث !!

كانت مشكلة مراد هى التى تشغل بالها حقا .. ولذا ، فعندما اجتمعت مع زملائها فى المركز وفى المعمل ، كانت ثورتها وحديثها منصبين على تلك الازمة التى تؤرقها ، والتى أضيف اليها ان الناس أصبحوا مجانين بالمال ، وان مراد استطاع أن يفحم أخوتها جميعا بمنطقه ، لا لشىء ، الا لانه سيكسب خمسة جنيهات كل يوم قابلة للزيادة ..

غير ان الحديث عن محسن كان لابد وأن يرد وهى تتحدث فى فترة الظهيرة ، واثناء اجراء تجربة أخذت كل فكرها حول تحديد النسبة الدقيقة للغاية من البروتين فى فول الصويا .. ذلك النبات الثائر الذى راح يزحف فى كل مكان ، مهددا عرش اللحم الذى اعتلاه منذ ان عرف ابن آدم طعم الحياه على وجه الارض .

قالت لبسيونى ، زميلها فى التجربة والمعمل ، وصديقها المقرب :

« حتى اللى هاجر واغتنى وبقى عنده فلوس ، اتكتم ولا فتحش بقه ! » .

حملق بسيونى فى ترمومتر الجهاز وضبط الحرارة وسأل :

« وده يبقى مين ؟! »

« محسن اخويا ! »

« ياخبر .. هو رجع من ايطاليا ؟! »

« ده ساب ايطاليا من زمان وراح كندا ! »

« كويس . واخباره ايه ؟! »
« بقى مليونير ! »
« بذمتك . والله ده خبر كويس ! »
« وعنده ميعاد دلوقت مع وزير السياحة ! »
« ليه ؟! »
« عايز يبنى مدينة سياحية فى الفيوم ويأجرها للمليونيرات ! »
« طب ماتخليه يشوف لنا عقد عمل بره ! »

●●●

ولقد كان الامر قد سار فى البيت الكبير ، قبل ان تغادره محسنة، على نحو آخر .

استيقظ الاب والام كعادتهما مبكرين كى يؤديا صلاة الفجر ، ويحتسيا الشاى ، ثم جلس عم رمضان كى يقرأ بعضا من آيات كتاب الله الذى كان يفخر بانه اصبح يختمه الان مرة كل عشرة أيام ... غير ان المفاجأة التى اذهلتهما حقا ، انه فى الوقت الذى كانت الام تسأل فيه زوجها عما ستقدمه لولدها محسن على الافطار ، فوجئا بمحسن وهو يجلس بينهما مرتديا جلباب ابيه الذى قدمته له الام قبل النوم ، وكانت الساعة قد تجاوزت السادسة بدقيقتين!

هرولت الام كى تعد افطارا سريعا وتضعه امام ولدها قائلة انه لا يليق بالمقام ، وقام الاب كى يوقظ محسنة كى تذهب لعملها ، ومرادا الذى لم يكن يستيقظ قبل العاشرة ، ونهضت محسنة كعادتها متبرمة ، احتست كوبا من الشاى والقت على الجميع تحية مقتضبة فهتف بها محسن :

« جرى ايه يامحسنة ، انا ماوحشتكيش ؟! »
« على قد احنا ماوحشناك طول العشر سنين اللى فاتت ! »

ألقمته حجرا فابتسم وغادرته ، وعندما وصل مراد وكان قد ارتدى ملابسه ، كانت الام تسأل ولدها :

« ايه حكاية اللوكاندة دى يامحسن ؟! »
« علشان المواعيد والاجتماعات والشغل ياماما ! »

قالها بلهجة من يقطع الطريق على كل مناقشة ، ثم أردف ضاحكا :

« لكن ده مايمنعش من انى حاجى دايما ، والبس الجلبية ، وانام فى أوضة الحاج ! »

فقال الاب :

« سيبيه على راحته يابهية ! »

جلس مراد الى جوار أخيه هاتفا :

« تعرف يا آبيه انى ماتصورتش انى حاشوفك فى يوم من الايام ! »

قال محسن فى حنان واضح :

« بس أنا زعلان منك يامراد ! »
« يا آبيه انا مش حاسيب الكلية ! ؟ »

التفت اليه محسن :

« وليه قلت انك مش عاوز تكمل ؟! »
« أصلهم بيستفزونى ! »
« ازاى ؟! »
« ناسيين انى بلغت سن الرشد ! »

ضحك محسن مغمغما :

« والله كبرت يامراد ! »
« وكل واحد فيهم عامل ولى امرى ! »

رفع محسن حاجبيه دهشة ، فأردف مراد :

« مع ان ولى أمرى عارف الحكاية دى ! »

التفت محسن نحو ابيه ، فلاحقه مراد :

« انا حاذاكر وحادخل الامتحان عادى ! »
« وحاتقدر تجمع بين المذاكرة والورشة ؟! »
« لازم ! »
« اشمعنى لازم يعنى ؟! »
« علشان الامور لازم تمشى كده ! »

ابتسم محسن وبدا مقتنعا بمنطق شقيقه الاصغر الذى اردف :

« وعلشان اعلم الهانم اللى سابتنى ان الشهادة سهلة ، وان الصعب ان الانسان يلقى نفسه ، ويعمل اللى هو عاوز يعمله ! »

ساد الصمت واشعل محسن غليونه فامتلأ جو الغرفة بالدخان المعطر .. استراح فى مقعده وقد استغرق فى التفكير ، نظر فى ساعته وكانت تشير الى الثامنة الا عشر دقائق ، تساءل فى صوت خافت :

« وماقلتلش كده ليه امبارح ؟! »
« علشان مفيش فايدة فى الكلام ، محدش حايصدق ! »
« واذا ماقدرتش تكمل دراستك ؟! »

« مش مهم ! »
« طب ايه رأيك فى اللى يجيب لك عقد عمل ؟! »
وقع السؤال على الجميع وقوع الصاعقة ، ترك الاب جريدة كانت فى يده وحملق فى ولده ، ابتسمت الام ابتسامة تائهة وانتابتها مشاعر شتى ، وبدا مراد مذهولا لاول وهلة غير انه هز راسه يمنة ويسرة فى رفض مهذب وهو يقول :
« كتر خيرك يا آبيه ! »
« حاتكسب فى كندا قد اللى بتكسبه هنا عشر مرات ! »
« ولو !! »
بدا محسن غير مقتنع فهم جامعا غليونه وثقابه وهو يدمدم :
« بقى تسيب الكلية وتشتغل ميكانيكى ، ولا تسيبشى الورشة وتشتغل شغلة محترمة ؟! » .
قال مراد :
« أصل انا باحب البلد دى ! »

●●●

غادر محسن البيت يحمل حقيبته الغريبة ذات الازرار والارقام ، وصنع مراد لنفسه كوب شاى آخر .. وجاءت « أم حسنى » لتنظف البيت وترفع بقايا الافطار ، وعلمت السيدة التى كانت قد اصبحت فردا من افراد الاسرة منذ سنوات بالخبر فى المطبخ ، اسرت لها به الام فتهللت ، واجتاحتها السعادة رغم انها لم تر محسنا قط ، فأطلقت زغرودة دوت فى أرجاء البيت ، وتبادل مراد مع ابيه نظرة ، وابتسم كل منهما وعاد الى ما كان فيه .
كان الاب رمضان قد احتل ركنه المفضل وراح يقرأ الجرائد ويتمتم بين الحين والحين ـ كما هى عادته ـ بتعليق لا يسمعه سواه .. وكان قد وصل الآن الى هوايته التى ادمنها على مر سنوات المعاش وهى حل الكلمات المتقاطعة .. فى ذلك الوقت من اليوم لم يك من الممكن لقوة على الارض أن تخرج الاب من استغراقه ... غير انه فجأة القى بالمجلة التى كانت فى يده جانبا ، وصاح :
« يعنى ثريا سابتك يامراد خلاص ؟! »
كان مراد يتصفح احدى المجلات ويستمع الى البرنامج الموسيقى وكوب الشاى فى يده .. لم يك فى حقيقة الامر يقرأ شيئا فى

المجلة ولا يستمع الى الموسيقى ولا يشرب الشاى .. رفع راسه نحو ابيه وتعثر لسانه :
« ثريا ؟! »
هتفت الام وكانت قريبة منهما :
« أصلها قليلة الاصل ! »
همس مراد :
« هى حره فى حياتها ياماما ! »
قال الاب فى حماس محاولا تلطيف الموقف :
« انت رايح الورشة امتى يا اسطى ؟! »
رد مراد :
« لا .. انا عندى ميعاد مع ثريا ! »
ساد الصمت ، وحملق فيه الاب غير فاهم ، فنهض ملقيا بالمجلة جانبا لكن مراد استطرد :
« اصلها اديتنى مهلة لحد النهاردة الساعة اتناشر علشان اقول لها رأيى النهائى !! »

بينما كان مراد يأخذ في ذلك الصباح طريقه الى حيث لايدرى ، فلقد كانت الساعة لاتزال العاشرة ، وكان موعده مع ثريا فى الثانية عشرة فى نفس الكازينو الذى كانا يلتقيان فيه دائما على شاطىء النيل .. كما كان ايضا غير راغب فى الذهاب الى الورشة فى هذا الوقت بالذات ... كانت الدكتورة سعاد رمضان تستعد لمغادرة المستشفى بعد أن دبرت كل شىء واعطت خبرا لمدير المستشفى الدكتور عطاالله بانها ذاهبة الى السفارة .

فى ذلك الوقت كان الدكتور اسامة يكشف على احد المرضى وقد استغرق فى التفكير فيما سيئول اليه حاله بعد سفر سعاد .. اما المهندس حسين فلقد كان يقف فى تلك اللحظة ساهما وهو ينظر الى احد الافران من بعيد ، ولمحه صديقه المهندس رفعت فرج وهو يقف ساهما فاتجه اليه ، وعندما اقترب منه كان لابد وأن يسأله : « مالك ياحسين ! » ، وبينما كان حسين يستدير نحو رفعت ليحكى له الحكاية ويستشيره .. كانت محسنة قد تركت تجربة فول الصويا وتحديد نسبة البروتين فيه ، وسرحت تماما فى أمر بدا لها شديد الاهمية والخطورة معا !

ايكون « بسيونى » قد خدعها كل تلك السنين ؟!

هكذا كانت محسنة تفكر وهى تقف وسط المعمل وقد ركزت عينيها فوق لمبة « فرن التجارب » المضيئة .. كانت جملة « بسيونى » التى طلب منها فيها أن تسأل أخاها عن عقد عمل فى الخارج ، قد أفلتت منه بسرعة ودون حذر كاف ، وعلى ذلك ، فلقد كان — من وجهة نظر محسنة — قد ارتكب الخطيئة العظمى دون أن يقصد الى ذلك على الاطلاق !

المسألة عند محسنة مسألة مبادىء ، أن الانسان الذى يلزم نفسه بمبادىء معينة ، مهما اختلفنا معها او اتفقنا ، انسان شريف .. انسان يستحق الاحترام ويستحق أن يعاشر .. اما هذا الذى يؤمن بشىء ويركب موجة أشياء أخرى لاغراض أخرى ، فهذا هو الفساد بعينه !!

ولقد كان بسيونى واحدا من ثلاثة من الباحثين الذين يزاملونها فى هذا القسم من أقسام هذا المركز المهول المتشعب الاقسام ..
كانت محسنة تعرف انها فرضت على الجميع احترامها ، ليست المسألة مسألة رجعية او تقدمية او ماشابه من الكلمات، لكنها مسألة اقتناع وموقف ، وموقفها من الحياة موقف علمى متناسق تمام التناسق مع القوانين الصارمة التى تدرسها وتلك التى تحاول أن تستنبطها من الطبيعة .

وعندما وقع اختيارها على بسيونى ، علم الاثنان الاخران أن المباراة قد انتهت ، ذلك انها طلبت من بسيونى ذات يوم ، أن يوصلها الى محطة الاتوبيس التى لا تبعد عن باب المركز لاكثر من مائة متر .. كانت محسنة قد عودت زملاءها على أن تحييهم وتغادرهم عند باب المركز ، لم يك هذا تزمتا منها على الاطلاق ، وانما هو موقف مؤداه انها لو سمحت لزميل أن يوصلها الى محطة الاتوبيس ، فلابد لها أن تسمح لباقى زملائها بهذا ، وهى أن سمحت فلسوف تصبح الحكاية هوجه ، ولسوف يزفها الى محطة الاتوبيس كل الزملاء وربما بعض الدكاترة ايضا ..

ذلك أن محسنة كانت تعلم انها جميلة ، وأن جمالها صاعق .. — وكان هذا حقيقيا الى حد ما ، وان اختلف جمالها عن جمال سعاد البارد فى أشياء كثيرة — ولقد قررت أن اخلاقها يجب أن تكون فى مستوى جمالها ، وان هذا هو الطريق الوحيد للخلاص مما حدث فى هذا اليوم .

وعندما أعلنت اختيارها لبسيونى كى يوصلها ، أصبح هذا فى حكم خطيبها ، وعندما فاتحها فى الامر ذات يوم قالت ان العجلة لا لزوم لها ، وان على كل منهما ان يدرس الاخر لفترة من الزمان ، ولقد ظلت شهرين كاملين لا تسمح لبسيونى بأن يوصلها الى ماهو ابعد من محطة الاتوبيس بخطوة ، وفى الشهرين التاليين سمحت له بركوب الاتوبيس معها ، وفى الشهر الخامس سمحت له بأن يوصلها الى باب العمارة ، وفى ذلك اليوم همست لامها بأن ثمة زميلا يريد التقدم لخطبتها ، قالت لامها انها تشعر بانها تستطيع ان تحبه ، قالت انه مناسب تماما ، قالت ان اخلاقه حسنة ، لكن اعظم مافيه على الاطلاق ، كان ذلك التوافق الغريب بين آرائه وآرائها .. فما من مشكلة ، او مبدأ ، الا واتفقا تماما على كل جوانبه .. وعندما قالت بهية هانم فى صوت خافت :

« طب ومستنية ايه يامحسنة ؟! » ... ردت محسنة على امها فى حيرة :

« مش عارفه ياماما .. فيه حاجة حايشانى! »

« حاجه زى ايه ؟! »

« زى .. زى .. زى ما اكون عاوزه أحبه ومش عاوزه ! »

« ومش عاوزه ليه ؟! »

« علشان فيه حاجه حايشانى ! »

« حاجه زى ايه ؟! »

وترقفت محسنة فى حيرة ، فلقد ايقنت ان الحوار بينهـا وبين امها سيسير فى دائرة مفرغة ، وان امها سوف تسال نفس الاسئلة ولسوف تجيب هى نفس الاجابات ، فقالت :

« مش مهم ياماما ، انا حاستنى شويه ! »

وهكذا ... وعندما وقعت الواقعة ، وزل لسان بسيونى بطلب « عقد عمل » ، التفتت اليه فى فزع ، وتذكرت ، كومض البرق ، كل ماقاله عن مصر ، عن العلم ، عن .. عن .. عن الحلم العظيم بأن تنبت هذه الارض « مس كورى » أخرى ، وجوليو كورى آخر .. هدم المعبد فوق راسها فلزمت محسنة الصمت ، واصاب بسيونى الحرج ، ارتج عليه وراح يضحك ضحكات متقطعة بلهاء جعلته رث المظهر ، قال انه « يهزر » وقال انه كان يمتحنها ، وقال ان « كل الناس كده ! » ،وقال .. قال كثيرا لكن محسنة لم ترد .. كان السؤال الذى انفجر فى راسها فى تلك اللحظة هو : « هل كان يخدعها بسيونى كل تلك الشهور ؟! » ، واكتشفت فى نفس اللحظة شيئا رهيبا ، اكتشفت انها تحبه ، وان قلبها يخفق ويدق بعنف فى نفس اللحظة التى اعطاها فيها بسيونى ظهره ، وذهب الى حيث لا تدرى فى مركز البحوث هذا !

●●●

قال حسين لصديقه رفعت وهو يوقع اوراقا قدمها له الاستاذ مبروك الملاحظ :

« والمصيبة مش فى كده .. المصيبة ان اللعبة ركبت فى دماغ صاحبتنا ! »

خرج مبروك بالاوراق فخلا المكتب لهما ، وجاءهمـا صوت الآلات من بعيد ، واشعل رفعت سيجارة ونفث فى جمرتها الدخان قائلا :

« انت اللى الحق عليك ، أنا صـ لك من الاول ماتطاوعهاش على كل حاجة ! »

صاح حسين :

« ياراجل دى مستبدة .. انت تعرف سميرة ؟! »

ابتسم رفعت بجانب فمه علامة السخرية وقال :

« سميرة تطلع ايه يا استاذ فى الست كى كى ... انا قلت لك من الاول ادبح القطه فى ليلة الدخلة ، عملت لى متحضر ، دلوقت تقدر تقول لمراتك لا ؟! »

« وهو انت اللى عمرك قلت لكى كى لا ؟! »

« لا ... »

وساد الصمت للحظة ، فصاح حسين :

« شفت بقى ؟! »

فلاحقه رفعت :

« بس بمزاجى ! »

●●●

قالت سعاد بانجليزية واضحة ومتقنة النطق :

« كان سبب التأخير هو تمسك مدير المستشفى بموقفـه ، استطعت ان أقنعه بالا ابقى لاكثر من عام واحد ، ولهذا جئت كى اقدم الخطاب بنفسى ! »

قالت هذا للملحق الذى استقبلها فى احدى غرف السفارة .. كانت الغرفة متواضعة الاثاث حقا . لمسة الذوق فيها تتجلى فى تمثالين : أحدهما آية فى الدقة مصنوع من الابنوس ، وآخـر ذروة فى الجهامة مصنوع من الجبس .. ولقد كان الملحق مهذبا مبتسما لكنه شان كل الرجال كان يتلصص بعينيـه بين الحين والحين على ساقى الدكتورة ، فلقد كانت سعاد جميلة ، وكـان جمالها من ذلك النوع الصارم الذى يبهر الانسان ويلجمه فى نفس الوقت ، رغم ضخامة جسدها النسبية ، الا انه كان جسدا جد متناسق .. قال الملحق بالعربية :

« على العموم اهلا وسهلا فيكى باى وقت ! »

قالها بلهجة وطنه ، واستراح فى مقعده وهو يداعب سلسلة مفاتيح ذهبية ،ثم اردف :

« ان شاء الله نستفيد منك على طول ، مش سنة واحدة ! »

ابتسمت سعاد قائلة :
« والله اذا عجبنى الحال مفيش مانع أجدد سنة ثانية ! »
وهكذا نهضت سعاد وقد تم الاتفاق على أن يتم الاتصال بها خلال الاسبوعين القادمين !
غادرت السفارة وكانت موقنة أشد اليقين ، من ان الرد سيصلها خلال أسبوع واحد ، ولهذا كان لابد لها ان تستعد للسفر ، فقادت السيارة الى وسط البلد ، وغادرتها وقد انتوت أن تهاجم محلات الملابس أولا ! .. وكانت الساعة فى ذلك الوقت ، هى الثانية عشرة بالضبط ..

●●●

وفى الثانية عشرة تماما كان مراد يهبط درجتى السلم الى أرض الكازينو المبتلة بمياه الخرطوم المثقوب .. وعندما اقترب خطوات لمحها تحت الشجرة ، كانت هناك ، تبدو متجهمة الوجه عصبية تماما ، فلقد كانت تهز ساقها برتابة ، وعندما مد مراد يده اليها تمتم : « ازيك ياثريا » ، أعطته أطراف أصابعها وغص حلقها بالدموع فلم ترد .. جلس امامها وكان الهم باديا على كل ملامحه .. كانت تلك النظرة الحزينة قد احتلت عينيه فبدتا ، كما هى العادة ، لامعتين ببريق غريب .. كانت ثريا فى مثل تلك اللحظات تشعر وكأن مرجلا يغلى بالغضب والحمم خلف هاتين العينين ، كانت تخافه فى تلك اللحظات خوفا حقيقيا ، وتحبه الى حد الجنون .. راحت ثريا ترتجف ، وكان مراد يعرف كل مايدور فى رأسها هذا الذى أحبه حبا ملك عليه عواطفه .
لم تك ثريا بنت الجيران ولم تك زميلته فى الكلية ..
التقى بها مراد فى حفلة من تلك الحفلات التى كان يذهب اليها مع فهمى ، حيث يرقصان مع فتيات يعرفانهن ولا يعرفانهن .. رأى ثريا وكانت تصحب شقيقها عمر ، طلبها للرقص فتبادلا النكات والحديث ، قال لها انه معجب بها وقالت له انها تشعر بالخوف منه ، رقصا كثيرا فى تلك الليلة ، ثم التقيا فى اليوم التالى ، وكان قد عرف انها طالبة فى نفس الجامعة ، وانها فى كلية التجارة ، وبعد ثلاثة اشهر واربعة ايام ، اعترف كل منهما للاخر بانه يحبه ، وتعاهدا بعد ذلك بأربع وعشرين ساعة على الزواج .. وكانا يتشاجران كثيرا ، ويتصالحان دائما ، وكانت

تطلق عليه لقب « الاسطى » لفرط حبه للسيارات ، ويضحكان معا ، ثم سرى هذا اللقب منها الى باقى افراد الشلة ، واصبح اسم « الاسطى مراد » يدل على الحب والمودة .. وعندما قبل المغامرة ، ووافق على ان يدير الورشة وان يصبح « اسطى » بحق وحقيق .. حلت الكارثة .. هلل الجميع فى سخرية وحماس اجوف ، وكان هذا فقط يكفيه ، اما ثريا ، فلقد اربد وجهها وقالت :
« انت اتجننت ؟! » .
« ليه ياثريا ؟! »
« انت عاوز تشتغل ميكانيكى ؟! »
« وليه لا ؟! »
« وعاوزنى اتجوز ميكانيكى ؟! »
توقف مراد عن الحديث ، وابتسم وقال فى صوت هادىء :
« يعنى أنا لو كنت ميكانيكى ماكنتيش حبيتينى ياثريا ؟! »
« انت حاتعمل لى زى الافلام العربى ؟! »
مال نحوها فى حماس وحرارة وهو يصيح :
« وعهد الله ابدا ، انا فعلا عاوز اعرف ! »
«تعرف ايه ؟! »
« لو انا كنت فى الاصل ميكانيكى .. وانتى شفتينى ، انا انا ، مراد دهود .. ماكنتيش حبتينى ؟! »
فى عناد بالغ ردت ثريا :
« لا ماكنتش حبيتك طبعا ! »
رفع مراد يده الى راسه محييا اياها قائلا فى مداعبة :
« يبقى سلام عليكم ! »
هتفت ثريا :
« مراد بلاش هزار بايخ .. انت عاوزنى اقول لابويا انى باحب واحد ميكانيكى وعاوزه اتجوزه ؟! »
« بلاش ! »
« هو ايه اللى بلاش ؟! »
« بلاش تقولى له »
« بلاش اقول له ايه بس يامراد ؟! »
« بلاش تقولى له انك بتحبى ميكانيكى ! »
« طب وده معقول بذمتك ؟! »

« ماهو ياماما كده ، يا اما مفيش غير سكة ثانية ! »
« ايه هي ؟! »
« انك ماتحبيش ميكانيكى ! »

هوت الجملة على وجهها كصفعة ، وكانت عينا مراد قد لمعتا فجاة بذلك الحزن الغريب ، قال هذا ثم تركها ومضى .. وقد مضى على هذا الحادث الان اثنان وثلاثون يوما ، التقيا فيها اكثر من مائة مرة ، فى الصباح والمساء وخلال اليوم وساعة العصر وبالتليفون ...

غابة .. غابة من الكلمات والاحداث وجد مراد نفسه فيها ، شيء كالقدر هو ، وهو يذكر ذلك اليوم بمزيد من الدهشة ، لم يك فى البداية غاضبا على الاطلاق ، ولقد كان يعلم أن ثريا ستتول ذلك ، ولقد كان يريد أن يمارس معها خناقة من تلك الخناقات التى كان يتفنن فى احداثها ليزيد حبها اشتعالا وتزيد حبه اشتعالا .. جاءه الغضب فجاة ودون ارادة منه ، من داخله تصاعد الغضب كمارد خرج من قمقم ، وفى كل مرة ، وقبل أن يلتقيا ، كان مراد يقول لنفسه انه سوف يتراجع امامها ، وانه كان قاسيا ، وانه فظ ، وانه أخطأ ، وانه لابد له أن يقنعها بفكرته ... غير ان ماكان يحدث ، كان عكس هذا تماما ، فما أن يلتقى بها ، حتى تصبح الكلمات كالبترول اذا ما القى فوق حريق !

بالامس .. كان كلّ منهما يشعر بالتعب ، كانا مرهقين لكثرة ماتشاجرا ، فاتفقا على ان يحسما الامر اليوم ، فى الثانية عشرة ظهرا ، فى هذا الكازينو المطل على النيل ، وعلى هذه المائدة التى جلسا عليها واليها دائما . كان على ثريا أن تعلنه بقرارها النهائى ، أن تقبله ، أو ، يفترقا !!

وكانت اللحظات الاولى جد عصيبة .

انهمرت الدموع من عينى ثريا كالمطر المنهمر ، وتقدم الجرسون بخطوة وشعر بالموقف فقال من مكانه :
« اى خدمة يابيه ! »
« اتنين لمون ! »

ومضى الرجل ، واصبحا الآن وجها لوجه ، وطال الصمت ، ولم يك هناك بد من ان يسال مراد :
« وصلتى لقرار ياثريا ؟! »

الصورة الخامسة

هكذا كانت الصورة فى ذلك الصباح ، فى ظل شجرة نبتت على شاطىء النيل ، وسط حديقة صنعتها الثورة مكان مقلب للقمامة ، وجاء رجل وعرض ان يدفع مبلغا من المال لمحافظة القاهرة لينشىء فى هذا المكان الشاعرى كازينو يلتقى فيه الناس ويروحون عن أنفسهم فى ايام القيظ .. و .. وهكذا اختار طلبة الجامعة هذا الكازينو بالذات ليلتقى فيه العشاق منهم ، ووسط الملايين الثمانية الذين تكتظ بهم القاهرة ، كان مراد وثريا شابين صغيرين ، كان هو يرتدى بلوفر رمادى اللون فوق قميص يبدو ـ رغم نظافته ـ مهملا .. وكان الاثنان ، فى غاية التعاسة ، كانا ، وكانهما يخطوان الى الحياة خطوتهما الاولى ، كانا شديدى القرب من بعضهما ، شديدى البعد عن بعضهما فى نفس الوقت ، كانا متشابهين الى الحد الذى ادهشهما دهشة فائقة ، وكانا أيضا ، وعلى نفس الدرجة مختلفين الى حد يدعو الى الرثاء !

اما كيف ؟!.. فهذا ماكان يحير ثريا حيرة بالغة .. ولم يصلا فى هذه المشكلة الى جواب أبدا .

●●●

نظرت ثريا الى مراد وكانت تعلم انها ستفترق عنه اليوم ، كانت تشعر انها تقطع قطعة من قلبها ذاته ، وحتى لو تراجع مراد ، فلقد كانت تعلم ان الفراق آت لا ريب فيه !

كانت منذ اربعة أسابيع فى حيرة بالغة .. كانت مترددة ، لكن مراد حسم لها ترددها ، ووضعها فى مكان الاختيار دون أن تكون هى التى خانت العهد ، كانت فى التاسعة عشر من عمرها ، ناضجة مليحة الوجه ، ممشوقة القد ، وكانت تعتنى عناية خاصة بشعرها الفاحم .. ومنذ اربعة اسابيع قالت لها أمها :
« بكره حاتروحى للكوافير ! »

نظرت اليها ثريا فى دهشة ، لم يكن الغد هو موعد الكوافير الذى تاخذ من ابيها اجره بشق الانفس .. غير ان امها اكملت :

« وتعملى مانيكير وباديكير بالمرة ! »

اذن ففى الامر شىء . خفق قلبها فى رفق ، اتسعت عيناها ، قالت امها :

« فيه عريس جاء يشوفك ! »

فى هذا اليوم كانت قد تعاهدت ، ربما للمرة الالف ، مع مراد على الزواج .. لم تقل له انها تحبه ، رغم أنها كانت تنتفض امامه حبا ، لكنه قال لها : « أنا باحبك ياثريا » عشرات المرات ، كانت قد عادت الى البيت محمولة على اجنحة سعادة بلا حدود ، كان للدنيا ، وقتها ، الوان زاهية ، ولقد اكتشفت ذات يوم بعد لقاء حار مع مراد ، أن الدنيا خلقت بالالوان الطبيعية ، وأننا لكثرة تعودنا عليها ، اصبحنا نراها أبيض واسود .. منذ ذلك اليوم تعودت أن ترى الوان الدنيا الزاهية ، فتحبها اكثر .. هكذا كانت فى ذلك اليوم ، وهكذا تركتها أمها فغادرت الغرفة وتركتها لفراغ غريب ، كأنه فوهة بئر شديدة العمق ، او هى بلا قرار .. فلقد ظلت ثريا تهرى وتهوى دون أن تستطيع التوقف ، شىء غامض كان يدفعها الى الصمت ، ولقد ثارت فى صدرها عواصف هوجاء ، وهمت ذات لحظة أن تفتح الباب وأن تواجه اباها وامها — ولقد كانت تستطيع تماما ! — أن تخبرهما انها ليست جارية يأتى السيد ليتفرج عليها ، لكن لذة غامضة اجتاحت كل كيانها ، وجدت نفسها — عندما حانت منها نظرة الى المرآة — تبتسم .. واحتدم فى رأسها الصراع عنيفا اشد مايكون العنف ، فلقد قررت ان تواجه الامر باسلوب آخر ، ان تذهب الى الكوافير وأن تستفيد من المناسبة فتتجمل ، ثم تواجه العريس المذكور ، ثم تعلن بعد المقابلة انه لم يعجبها ، وهكذا ينتهى الأمر .. ثم اتخذت قرارا بأن تخبر مراد فى اليوم التالى !

●●●

فى تلك الايام بالذات كانت الفكرة — فكرة العمل فى الورشة — قد اختمرت فى رأس مراد .

وعندما وضع مراد الجنيه الذى قدمه له فهيم فى جيبه يوم اصلح السيارة اثناء غيابه .. ظل العرض الذى عرضه عليه صديقه ، يدق فى رأسه كدقات ساعة مضبوطة ودقيقة .. بسرعة كانت عقبات كثيرة تنهار أمام حلمه الرائع ، ان يصبح لثريا .. ويوم

صاحت فيه وهما فى الكازينو :

« طبعا لازم تدفع مهر ، صحيح هو مالوش لزوم لكن آهى بلدنا كده ! »

صاح فيها متحديا :

« بلدكم أنتم ياست هانم ، أنما حكاية المهر دى بطلت من زمان ، هو أبوكى حايدفع لنا حاجة ؟! »

« طبعا يا أستاذ . لازم يجهزنى ! »

« انا مش عاوز حد يجيب لى حاجة ! »

« طب وانت خسران ايه ؟! »

« المهر ! »

وانفجر الاثنان ضاحكين .. كم كان مراد سعيدا فى هذا اليوم ، لكنه وجد نفسه أمام عقبة من نوع غريب .. فاذا استلزم الامر بالفعل ان يدفع مهرا ، فمن اين يأتى به وابوه لا يملك سوى معاشه ، وحسين شقيقه يموت قبل أن يستأذن من سميرة فى انفاق قرش ، وسميرة لا تخرج من جيبها المال الا فوق جثتها .. وقد تستطيع سعاد ان تعطيه مبلغا يكفى لشراء بدلة ، اما محسنة فيده منها والارض .. فما العمل ؟!

وعندما صارح ثريا بالأمر قالت فى تحد :

« وانا مالى ، هو مش انت الراجل . اتصرف !! »

كان ألذ مافى ثريا أنها مراوغة ، وكم اسعدته مراوغتها هذه ، انها تختار الجانب الذى يسعدها ، واذا كان مايسعدها يختص بالمساواة ، فلسوف تصبح أشد النساء تعصبا للمساواة بين الرجل والمراة ، اما اذا كانت راحتها فى أن تتحول الى انثى ، وتترك له مكان الصدارة ، فلسوف تواجهه بكل ماكان يقول حول الرجل واحقيته فى قيادة الامور !

وهكذا كانت تقفز من موقف الى موقف ، فيزيد هذا مراد حبا ! .

ورغم ان ماقالته كان يتعارض مع ماكانت تطالب به ، الا ان احساسا غامرا بالزهو قد انتابه عندما قالت : « مش انت الراجل ! » .. ولقد كان يريد أن يثبت لها انه رجل ، ولهذا اختمرت فكرة ان يعمل ميكانيكى فى راسه ، واصبح يتردد على الورشة يوميا .

لكن ثريا لم تخبر مراد فى اليوم التالى بما حدث .

هى لا تذكر ، وربما لا تدرى ، لماذا لم تخبره .. غير ان هذا حدث ، وعادت الى البيت ، ودخلت الى الحمام ، وحجزت موعدا مع « مسيو عامر » الكوافير ، وافهمته انها تريد موعدا للمانيكير والباديكير ، كانت تشعر بزهو بالغ وهى تمارس اشياء طالما حلمت بها ، وعرفت أن العريس شاب فى الثلاثين من عمره ، أنه يكبرها باحدى عشرة سنة لكن هذا الفرق فى السنين لم يبد لها كثيراً ذلك أنه يملك سيارة ، ولديه شقة مكونة من خمس غرف ، وهو مدير ادارة فى احدى الشركات ، وله دخل خاص يصل الى الف جنيه فى العام ، زيادة على بعض الاعمال التى تدر عليه مابين خمسين ومائة جنيه أخرى فى كل شهر .. ولقد وعد أن يقضيا شهر العسل فى تورنتو بكندا ، لان أخاه يعمل هناك ، وهو مليونير يملك قصرا على بحيرة أونتاريو ، ومصنعا صغيرا للازياء الشعبية العربية .

عندما تخيلت نفسها تقود السيارة ، انتابتها رجفة عارمة ، وتخيلت نفسها تدخن سيجارة ، وتملك فى حقيبة يدها عشرات الجنيهات ، تخيلت العريس اسمر الوجه مربع الملامح خشن الشعر انيق الملبس ، تفوح منه رائحة بارفان رجالى غالى الثمن ، تخيلته عريض المنكبين غليظ الشفتين وقح النظرات .. وكان لديها فستان لا ترتديه الا فى المناسبات ، فأرسلته الى المكوجى ، وذهبت الى الكوافير وعادت وقد تحولت الى انسان باهر .. جلست امام المرآة وبدأت تضع المكياج خفيفا حالما كأنه غير موجود ، وعندما وضعت اللمسات الاخيرة فوق شفتيها دق الجرس ، ودقت الساعة العتيقة المعلقة فى الصالة سبع دقات لها رنين هادىء ، وسمعت فى الخارج اصوات ترحيب مبالغ فيه ، فأيقنت أن العريس قد وصل وان شقيقته جاءت معه .

قبل أن تدخل عليه اضطربت لكنها لم تتردد .

بعد دقائق عشر سبحت من غرفتها الى غرفة الصالون عبر الصالة تزفها كلمات أمها وضحكات شقيقة زوجها ، انتفضت عندما ذكرت فى خاطرها كلمة الزوج ، غير انها تمالكت نفسها عندما واجهته .

وجدت أمامها شابا وسيما تماما .

وجهه رقيق الملامح كوجه فتاه ، شعر فاتح بلا لون على الاطلاق فكل الالوان فيه ، عينان شديدتا اللمعان وكان ضوءا مسلطا عليهما ، رباط العنق زاه لكنه لا يلمع ، الساق فوق الساق ، والسيجارة المستوردة بين الاصابع ، ولا خواتم فى اليدين ، لكن المعصم يتزين بساعة شديدة الرقة ، تصرخ بانها ثمينة !

بعد فترة صمت وترقب لم تتعد الثوان ، جاءها صوته واثقا آمرا :

« انا يا آنسة ثريا اعرفك من زمان ! »

دق قلبها ، ورفعت اليه عينيها فى دهشة وتساؤل !

●●●

ذات يوم كان يجلس بجوار فهيم فى سيارته ، وكانا فى طريقهما الى سهرة فى شارع الهرم ، اختمرت الفكرة فى رأسه وحده فلقد حرص على الا يذكر شيئا لاحد ، ولا حتى لثريا .. كانت المشاكل تفتح له فاها .. واذا فكر فى المسكن صاحت ثريا :

« وانا مالى ياخويا ، انا عاوزه بيت لوحدى ! »

هو يعلم ان ايجار مسكن يحتاج الى خلو ، وان الخلو قد ارتفع الى الوف الجنيهات ، وحتى ايجار الشقة ، مهما كانت صغيرة سيقضم قطعة كبيرة من مرتبه ، هذا اذا وجد عملا قبل ان توزعه القوى العاملة ، وان معنى كل هذا ان ينتظر لسنوات حتى يستطيع ان يتزوج ثريا ، وانه اذا كان قد كسب جنيها فى دقائق فانه كان يحسب الحسبة يوميا وهو فى طريق عودته ، وكان اقل ماسوف يدخل جيبه فى نهاية كل يوم ، خمسة جنيهات بالفعل ؛ وانه يستطيع بهذا ان يوفر مشوارا طويلا وبهذا يستطيع ان يلبى لها كل رغباتها ، ان يشترى الشبكة وان يدفع مهرا وان يجد مسكنا وان ... وان يعيش معها اخيرا ! وهو لم يفكر ابدا فى ان يترك الدراسة ، بل انه تطرف وفكر ان يقبل وظيفة القوى العاملة عندما تأتى ، ويعمل ايضا فى الورشة !

قال لفهيم : « ولد ياباشمهندس ! »

رد فهيم : « ايه عاوز ايه ؟! »

قال مراد : « أنا قلت ! »

سال فهيم : « قلبت ايه ؟! »

اعتدل مراد وسدد اليه جملته وهو يميل نحوه :

« انى امسك لك الورشة وآخد ٥٠٪ »

« والمذاكرة ؟! »
« مالكش دعوة ! »
« الشغل شغل ياصاحبى ! »
« اذا ماعجبتكش ابقى ارفدنى ! »
« موافق ! »

●●●

« موافقة ! »

هكذا خرج صوت ثريا دون ارادة منها ، وكان هذا بعد أن غادرهم العريس ، وجاءت كلمتها ردا على سؤال وجهه لها أبوها ، فهتفت الام فى تأثر بالغ :

« ربنا يسعدك يابنتى ! »

وقال الأب :

« على خيرة الله ، نكتب الكتاب بعد شهر ، على ما أخوه يوصل من كندا ! »

كان لوقع كلمة « كندا » رنين خاص فى أذنيها !!

وكانت هى قد اتخذت عددا لا بأس به من القرارات قبل أن تشرق شمس اليوم التالى ، كان أهم تلك القرارات أن تخبر مراد ، لكنها فى كل مرة كانت تتراجع ، كانت تخشى وقع الصدمة عليه ، والغريب، أنها فى كل يوم كانت تراه ، وفى كل مرة رأته فيها ، كانت تشعر أن حبه يزداد توغلا فى حنايا صدرها .

●●●

صاحت فيه ذات مرة : « طبعا مش ممكن ! »
« ياعبيطه حادفع لك مهر الف جنيه ! »
« وايه يعنى الف جنيه ! »
« وحانحوش خلو الشقة فى سنة واحدة ! »
« واذا جالى حد فى السنة دى ؟! »
« ترفضى طبعا ! »
« أقول لبابا ايه ؟! »

هتف مراد فى حنق :

« اروح اخطبك اول ماتظهر النتيجة »

ردت ثريا فى أسى :

« واقول لبابا انك بتشتغل ميكانيكى ؟! »

●●●

ولقد مضت على ثريا أيام عصيبة ، ذلك انها لم تعرف كيف تم هذا الذى تم ، كانت هى التى وافقت ، وهى التى قبلت ، وهى التى رحبت ... فهل هى تريد هذا حقا ؟!

وكانت هى التى اخفت عن مراد خبرها الغريب ، يوما بعد يوم ، فى كل يوم تؤكد لنفسها أنها ستخبره به ، لكنه يأتيها متحمسا ، مجنونا بحبه ، متدفقا ، مليئا بالحياة .. الامل ، هو الشىء العظيم الذى يقود خطاه نحو المستقبل .. معها !!

مضت أيام عصيبة ، كان العريس متعجلا ، وحدد موعدا للزفاف قبل ان تظهر النتيجة ، وقال انها تستطيع أن تحصل على البكالوريوس وهى زوجة ، وقال أيضا : انه لا يحب لزوجته ان تعمل ، فدخله يكفيه ، وهما ليسا فى حاجة الى المرتب ، ويمكنها ان تترك مكانها فى الوظائف لواحدة اخرى تكون اشد حاجة الى المرتب منها !

ومضت أيام عصيبة كان مراد يتمزق فيها ، كان احساسه بالمهانة مروعا ، فلقد اكتشف ان للدنيا وجها اخر ، وانه لو كان بالفعل ميكانيكيا ، لما احبته ثريا ، وانه ، هو هو ، لا يعنى شيئا !

ذهب الى الورشة وتسلم العمل واجتذبته دوامة الصراع فاغرق همومه فى اصلاح سيارات الناس ، وعرف بعض اصحاب السيارات بقصته فشجعوه وتقربوا منه ، وكانت الامور تسير سيرا حسنا ، لكن ثريا كانت تتباعد ، ولم يعد يراها كثيرا ، حتى كان لقاؤهما الاخير ، وحتى كان لقاؤهما اليوم ، وحتى قال مراد متسائلا :

« وصلتى لقرار ياثريا ؟! »

كان صوته ضعيفا واهنا ، كان يتوسل ، ورغم كل ما أصاب ثريا من الم ، رغم كل ماكانت تعانى منه ، رغم احساسها بالحب الشديد لهذا الفتى الجالس امامها ، رغم أنها عاهدت نفسها على أن تحفظ حبه فى قلبها حتى الموت .. الا أن خوفا عارما اجتاحها اجتياحا ، فلقد كانت نبرة مراد توحى بانه سوف يتراجع ، فاذا فعل ، فماذا هى فاعلة ؟!

مال عليها مراد متسائلا :
« ثريا ! »
« مراد .. انا حاقول لك على حاجة بس ماتزعلش ! »
استرخى مراد فى جلسته وقد ايقن من النهاية ، اشعل سيجارة وقال بصوت هادىء :
« برضه مصممة على موقفك ! »
« لا مش كده ! »
« امال ازاى ؟! »
« انا حاتجوز الاسبوع الجاى ! »

الصورة السادسة

فى تلك الليلة التالية لبداية الاحداث ، لم يك قد مضى على العائلة كلها سوى يوم واحد ، لكن الجميع ، الجميع بلا استثناء ، كانت احوالهم قد تغيرت تغيرا غريبا .

كان مراد بالذات قد أصيب بصدمة عاطفية حقيقية . ولقد كان يقبل أن ترفض ثريا الزواج منه لانه يعمل ميكانيكيا ، أو لانه أراد ذلك ، لكن الذى رفضه عقله رفضا قاطعا ، هو ذلك الخبر الذى هوى فوق راسه فحطم فى وجدانه الكثير .. فهل كانت ثريا تخدعه طوال تلك الايام الاخيرة لحبهما ؟!

وكانت محسنة تفكر فى نفس الشىء بالنسبة لبسيونى الذى زل لسانه وتمنى لو أن محسن استطاع ان يجد لهما عقد عمل فى كندا !

اما حسين فكان امره مختلفا .. اذ أن الليل قد هبط عليه وهو مستغرق فى التفكير فى هذا المشروع الذى بدا له - فى واقع الامر - خلابا .. فلو انه وفق فى الحصول على عقد عمل بالخارج ، فلسوف تتحقق له كل الاحلام التى طالما راودته فى العمارة والفيلا والفريجدير والسخان ، و ... ولسوف يرضى سميرة ، ولسوف يكون بالقطع سعيدا ، غير أن شيئا هاما ظل يظلل تلك الاحلام الوردية ، سؤال ملح ، فكيف يترك مصر ؟!.. كيف يتركها ويهاجر ؟!!

وفى بيت الدكتورة سعاد ، كان التغيير قد أصبح واقعا ، فلقد كانت تناقش زوجها على ان سفرها قد أصبح وشيكا ، وكان عليهما أن يرتبا كل شىء معا ، النقود والبيت والحساب والبنك .. و.. وعشرات التفاصيل التى شغلتهما عن موعد العيادة ، فتاخرا فى الذهاب اليها نصف ساعة كامل !

وهكذا .. عندما اجتمعت العائلة كلها فى تلك الليلة ، كان كل فرد فيها ينظر الى الاخرين بعينين جديدتين ، ونظرة جد مختلفة .

●●●

نظر فهيم الى صديقه وضم مابين حاجبيه .. واذا كان مراد قد اشتهر بين الاصدقاء بخفة الدم والمرح ، فان هذا الشحوب الذى كسا وجهه ، قد ادهش فهيم دهشة جعلته يقترب منه متسائلا :

« مالك يامراد ؟! »

قال مراد وهو يفر من نظرات صديقه :

« ولا حاجة ! »

كان مراد فى ذلك الوقت يشرف على اصلاح احدى السيارات ، وكان يكتشف فى كل يوم شيئا جديدا ، ويتعلم فى كل ساعة — عن السيارات — اشياء لم تك تخطر بباله . ولقد ظن فهيم أن العمل الجديد قد أثر على صديقه ، ظن أن مرادا لن يستطيع الاستمرار .. لذلك فلقد بقى حتى انتهاء العمل فى الورشة ، وصحب مرادا معه فى السيارة .. وعندما انطلق بها على طريق الكورنيش ، كان مراد قد لزم الصمت طوال الوقت ، فسأله فهيم

« مراد .. انا لازم اعرف ايه حكايتك ! »

قال مراد :

« قلت لك ولا حاجة يافهيم ! »

« فيه حد مضايقك فى الورشة ؟! » .

« ابدا »

« متخانق مع حد فى البيت ؟! »

« ابدا ! »

صاح فهيم :

« طب ايه الحكاية لازم اعرف ! »

قال مراد :

« ثريا حاتتجوز الاسبوع الجاى ! »

قال هذا ، ثم فرت من عينه دمعة !

●●●

قالت الام لزوجها الذى فرغ لتوه من صلاة العشاء وكانت صينية القهوة بينهما :

« بنتك محسنة مالها يارمضان ؟! »

ردد الاب وقد سرحت نظراته الى بعيد :

« محسن ماالكلمش حتى فى التليفون يابهية ! »

« البنت من ساعة ماجت ماسابتش أوضتها ! »

« بس لو نعرف هو حاييجى امتى وناوى يقعد فى مصر قد ايه ؟! » .

واكتشف الاثنان أن كل منهما يتحدث مع نفسه ، فلزما الصمت، وراحا يحتسيان القهوة وقد استغرقا تماما فى التفكير .. وكان البيت صامتا ساكنا ، وغرفه جميعا مظلمة !

●●●

فى احدى هذه الغرف ، كانت محسنة ممددة فوق فراشها وعيناها مفتوحتان معلقتان بالسقف وقد بدا لها هذا الذى حدث صباح اليوم وكأنه كارثة .

فلقد اختفى بسيونى طوال اليوم ولم يعد اليها .. حتى عندما انتهى موعد العمل وقفت فى المعمل تنتظره كما هى العادة لكنه لم يحضر ، لم يك فى نيتها أن تسأل عنه لكنها لم تستطع ، اخطأ بسيونى وزل لسانه نعم ، فهل كان الامر يستحق منها كل هذا التجهم ؟! .. غادرت المعمل وهى تجرجر ساقيها وتتباطأ فى سيرها لعل بسيونى يظهر ، أو يراها فيلحق بها ، أو تلتقى به فيتحدثا ... كان الوقت يمضى وممرات المركز تخلو من الناس وهو لا يظهر ، وعندما استقبلت حديقة المركز خارجة من بابه الرئيسى كما تعودت أن تفعل دائما ، كانت واثقة من أن بسيونى ينتظرها عند البوابة لكنه لم يكن هناك .. مرت بالبواب فتوقفت ، ترددت فى السؤال عنه لكنها لم تستطع ، سألت البواب فاذا الجواب يأتيها مثل صفعة هائلة :

« الدكتور بسيونى مشى من الساعة التانية ! »

لم يك بسيونى دكتورا بعد ، لكن السعاة والبوابين تعودوا أن يطلقوا هذا اللقب على الباحثين فى المركز ، ذلك انهم دائما مايحصلون على « الدكتوراه » ان آجلا أو عاجلا ، أحست محسنة فى ذلك الوقت أن ساقيها لا تقويان على حملها ، بدا لها المشوار من باب المركز حتى محطة الاوتوبيس طويلا طويلا ، استندت الى أحد اعمدة النور والقت ببصرها نحو الطريق فلمحت تاكسيا ، أشارت له فى يأس فلقد تعودت منذ زمان طويل الا تكلف نفسها مشقة ايقاف سيارات الاجرة ، غير أن التاكسى توقف وكأنه نجدة من السماء ، القت بنفسها فى المقعد الخلفى وهمست للسائق بالعنوان ، وعندما

بدأت السيارة فى الحركة ، لم تستطع محسنة ، أبدا لم تستطع أن توقف الدمع الذى انهمر من عينيها كالسيل ...

فتحت أمها باب الغرفة ومدت يدها الى زر النور فغمر الضوء الغرفة واغلقت محسنة عينيها واستدارت بجسدها نحو الحائط :

« وبعدين يامحسنة ؟! »

« ياماما قلت لك ميت مرة مفيش حاجة ! »

« حصل حاجة بينك وبين بسيونى ؟! »

« أبدا ياماما ماحصلش حاجة ! »

« أمال مالك .. ايه اللى بيكى ؟! »

ارتجف صوت الأم حنانا فنهضت محسنة جالسة فى الفراش وقد استفزها ذلك الحنان ، قالت :

« ماما .. انتى عاوزه منى ايه ؟! »

نظرت اليها بهية هانم ولم ترد .. ارخت محسنة عينيها أمام نظرات أمها ، همست مستسلمة :

« مش عارفه ياماما .. مش عارفه حاجه ، يمكن انا غلطانه ! »

« طب مش تقولى لى يابنتى ايه الحكاية ؟! »

وبدأت محسنة ، بكلمات متعثرة ، تحكى لامها ما حدث فى صباح ذلك اليوم .

●●●

فى ذلك الوقت كان حسين يجلس أمام سميرة زائغ البصر ، وكانت سميرة ، لفرط قلقها الذى لم تعرف له سببا ، تدخن سيجارة وهى تحملق فى وجه زوجها .

« خلاص يا سميرة ، حاكلم محسن الليلة ! »

« واذا ماكلمتوش ؟! »

هوى السؤال على أعصابه فازداد توتره ، صاح :

« هو انتى لما تطلع فى دماغك حاجة ، باتنفذيها ياتقلبى الدنيا على دماغى ؟! »

« الحق على اللى بادور على مصلحتك ! »

« خلاص ، قلت لك حاتكلم مع محسن ، بس لو ماقدرش يعمل حاجة مايبقاش ده ذنبى ! »

« يا اخى انت غاوى فقر ؟! » .

« طب عاوزانى أعمل ايه ؟! »

« عاوزاك تتحرك شوية زى بقية الناس ! »

« عاوزانى اتحرك ازاى ؟! »

« لو محسن ماعملش حاجة ، تعمل انت ! »

قالت سميرة هذا فساد الصمت بينهما ، كان حسين قد ايقن ان « الحكاية » قد ركبت فى راس زوجته وان لا مفر ، ولم تعد المسالة ، منذ هذه الدقيقة ، مسالة محسن فقط ، كانت المسالة قد أصبحت هدفا لابد من تحقيقه ، فسأل زوجته فى صوت حزين :

« يعنى انتى عاوزانا نهاجر باى شكل ؟! »

هتفت سميرة :

« ليه لا ؟! »

ولم يعد هناك مايقال بينهما !

●●●

فى تلك اللحظات نفسها كانت العيادة قد خلت تماما من المرضى .. وكان الدكتور أسامة يغادر غرفته متطلعا الى غرفة زوجته عبر الصالة ، التقت عيناه بعينى الممرضة فسأل :

« فيه حد عند الدكتورة ؟! »

« لا يابيه ! »

هكذا ردت الممرضة فعبر الدكتور أسامة الصالة ونفذ الى غرفة الدكتورة سعاد !

« اهلا ياحبيبى . انت خلصت ؟! »

وقعت كلمة « حبيبى » على قلب الدكتور أسامة فزلزلته تماما.

« انا كنت مستنيكى ياسعاد ! »

« وانا كمان كنت مستنياك ! »

« ربنا مايحرمنيش منك ابدا ! »

« حاتاخد ايه معانا لمحسن ؟! »

« زى ماانتى عاوزه ياحبيبتى ! »

« تفتكر ناخد جاتوه ، والا بوكيه ورد ظريف ؟! »

ابتسم الدكتور مغازلا وهو يقول :

« اذا كان على الورد ، كفاية انتى ؟! »

خطت سعاد من خلف مكتبها واتجهت نحو زوجها الذى كان يتوسط الغرفة .. اقتربت منه حتى التصقت به ، احاطت عنقه

بذراعيها وكانت تعرف تأثير هذا عليه ، نظرت فى عينيه وسرت أليها الرعدة من جسده ، قبلته فى شفتيه وهمست :

« بتحبنى يادكتور ؟! »

« الحب شوية عليكى ياسعاد ؟! »

« حاتلعب بديلك وأنا مسافرة ؟! »

« اخص عليكى . انا بتاع الحاجات دي برضه ! »

« هاتخرج البنت كريمة من العيادة ؟! »

« كل اللى انتى عاوزاه اعمليه ! »

رفعت سعاد ذراعيها من فوق كتفيه ولم تأبه لخيبة الامل التى اجتاحت ملامحه ، ثم اتجهت نحو حقيبة يدها وقد تبدل صوتهـا وأصبح حاسما :

« انا اتفقت مع محمود المرض انه يجى من اول الشهر ! »

كان هذا ايذانا بأن وقت الانصراف قد حان .. فتقدم الدكتور أسامة من الباب وفتحه ، ونفذت منه سعاد وهى تقول :

« نعدى على الهيلتون ناخد له معانا تورتايه كويسه ! »

« وهو كذلك ! »

قالها أسامة وهو يتبع زوجته تغمره السعادة تماما !

●●●

فى التاسعة مساء انتهت الحلقة التلفزيونية فنهض الاب مـن مكانه صائحا :

« يعنى لو ماكانش محسن هنا ماكناش اجتمعنا كده ابدا ! »

قال محسن الذى بدا صارم الملامح :

« والله يابابا انتوا واحشنى قوى ! »

هتفت أمه وهى تربت على كتفه :

« يعنى مش حاتاكل يامحسن .. دانا عـامله لك الملوخيـة بايدي ؟! »

وصاحت سعاد :

« ماقلتش يامحسن عملت أيه النهاردة ؟! »

« فى ايه ياسعاد ؟ »

« مع وزير السياحة ! »

قال محسن :

« يظهر انى حاقعد معـاكم كتير .. المسألة مش سـهلة زى

ماكنت متصور ! »

لكزت سميرة زوجها فقال حسين :

« قول لى يامحسن .. امتى حا تتعشى عندنا ؟! »

« أي يوم يعجبك ياحسن ! »

« بالمناسبة ، أنا كنت عاوز اتكلم معاك فى موضوع ! »

فهمت سعاد ما يرمى اليه شقيقها كما لاحظت تلك اللكزة التى اصابته من سميرة فصاحت :

« على فكرة ياجماعة ، أنا عندى ليكم خبر هايل ! »

صاح الاب فى مرح :

« بقيتى حكيمباشى ياسعاد ؟ ! »

« لا .. أنا مسافرة ! »

هوى الخبر كالقنبلة فساد الصمت لثوان ، وكانت محسـنة تجلس فى ركن المكان صامتة ، لكنها اعتدلت فى جلسـتها وهى تتساءل :

« اوعى تقولى انك قبلتى عقد العمل يا أبله ! »

قالت سعاد :

« وحضرت شنطى خلاص ! »

كان الوقت يمضى والاحاديث تترى والتعليقات تتتالى ، وكانت التورتة قد التهمت كلها ونسى الحاضرون أن مرادا غير موجود ، تشابكت الكلمات وشمل الدفء كل شىء وكان الاب مهموما يردد بين الحين والحين : « مش كفاية محسن عايش بره ، عاوزة تسيبينا انتى كمان ياسعاد ؟! » ، وكانت سعاد تدافع عن موقفها ، وكانت سميرة تؤيدها بحرارة ، خاصة بعد أن اختلى زوجها بشقيقه فى غرفة داخلية !

●●●

نظر حسين الى شقيقه بعين تائهة :

« قلت ايه يامحسن ؟! »

« المسألة مش سهل زى ماانت فاكر ياحسين ! »

« لكن تفتكر انك لو بعت تلكس وسألت ، حايردوا عليك بعد قد ايه ؟! »

ضحك محسن قائلا :

« اذا كان عليهم هناك حايردوا فى نفس اليوم ، المهم انك تحضر لى

كل المعلومات والشهادات الخاصة بيك ، علشـان نبعت لهم كل التفاصيل ! » .

« محسن ... لو ساعدتني في الحكاية دى حايبقى جميل مش حانساهولك ابدا ! »

« مفيش في البلاد دى حاجة اسمها جمايل ياحسين ، الشغل شغل ! »

هتف حسين في حماس :

« طبعا .. انا متاكد من كده ! »

« ولو كانوا محتاجين لتخصصك ، حايبعتوا لى كل حاجة ! »

« تفتكر المرتب حايبقى كويس ؟! »

« هو في البداية مش حايبقى كويس قوى ، انما بعدين ، لازم يتحسن ! »

أشعل حسين سيجارة وتلعثم متسائلا :

« يعنى تفتكر البداية حاتكون قد ايه ؟! »

مط محسن شفته السفلى في استهانة قائلا :

« ما اعتقدش انها حاتزيد على تمنتلاف دولار في السنة ! .. »

دق قلب حسين في عنف ، كان المبلغ مهولا ، واذا كانت هذه هي البداية ، فكيف ستكون النهاية .. غير أن محسـنا سأله فجأة :

« انت بتاخد كام دلوقت ؟! »

قبل ان يرد حسين ، دق جرس الباب ، ثم دوت في الخارج صرخة عالية :

« مراد .. الحقني يارمضان ! »

واندفع حسين ومحسن مهرولين نحو الخارج .. وكان مراد ممددا فوق الارض فاقد الوعى .

● الصورة السابعة ●

كان وقع هذا الذى حدث متباينا بالنسبة لافراد الاسرة جميعا ، فعندما دق جرس الباب كانت سعاد منخرطة في حديث مع سميرة حول السفر والمرتبات والسيارات والبدلات والمشتريات وقطعة الارض على شاطىء العجمى التى تحتاج الى بناء ، وكانت الام تحاول أن تصنع شيئا لاتدريه ، فهى تنتقل من هنا الى هناك وتقول كلمة لهذا واخرى لتلك ، وراح عم رمضان يتحدث الى الدكتور اسامة عن هذا « الوجع » الذى كان ينتابه بين الحين والحين في كتفه الايسر ..

اما محسنة ، فكانت ، منذ أن جلست جلستها تلك في ركن المكان ، ساهمة واجمة ، مستغرقة تماما في هذا الحوار الغريب الذى راح يدور في داخلها حول بسيونى ، حول تلك العاطفة التى اتقدت فجاة واشتعلت في صدرها عندما اخطأ الشاب الذى اختارته ــ دونا عن كل شباب المركز ــ ليصبح ذات يوم زوجا لها .

دق الجرس فهرولت الام في سعادة لتفتحه وهى تهتف : « مراد جه ! » ..

لكنها ، ما ان فتحت الباب ، حتى شهقت وتراجعت .. وقبل أن تفتح فمها بسؤال ابنها عما به ، حتى كان هذا قد هوى من طوله ، ممددا فوق الارض !

كان وقع الذى حدث متباينا بالنسبة لافراد الاسرة جميعـا ، فلقد كانت رائحة الخمر تفوح من مراد وكأنه استحم في بحر من المسكرات ، وكان وجهه محتقنا لدرجة افزعت سعاد التى طلبت من الرجال ان يحملوه الى الداخل كى تقوم باسعافه .. وفي لحظات الهرج والمرج والحركة والسؤال واللا اجابة ، كان عم رمضان قد انتحى في ركن من البيت وحده ، وقد أطرق ، وانتابه حزن بالغ ..

●●●

فكر محسن في الامر بسرعة ، اشعل غليونه وتمتم :

« مراد مابقاش صغير ، بس مش بالشكل ده ، مايصحش ! »

وهمس حسين فى اذن شقيقه :

« المصيبة ان ابوك عرف .. دى كارثة ! »

ودمعت عينا محسنة ، وقالت :

« انا مش فاهمه مراد جرى له ايه ؟! »

وبكت الام وهى تروح وتجيىء وقد انخطف قلبها على ولدها ، وعندما اقتربت من زوجها ، رفع هذا اليها عينين غطتهما الدموع ، جلست بجواره ، وربتت على ركبته ، همست :

« مراد مابقاش صغير يارمضان . الولد تعبان ! »

وكانت سميرة وزوجها الدكتور اسامه يحيطان بمراد بعد ان افرغ كل ماق جوفه ، خفق قلبها لمنظر شقيقها الاصغر .. وربتت على صدغه ، همست فى حنان :

« انت اتجننت يامراد تعمل فى نفسك كده ؟! »

طفرت الدموع من عينى مراد وقال :

« نفسى اضعف يا ابله .. نفسى ابقى عيل مرة ! »

فدمعت عينا اسامة !

عندما استغرق مراد فى النوم بعد ذلك ، كان جو البيت قد سادته الكآبة ، نظر محسن الى الجميع وقرر ان يقوم بدور الاخ الاكبر . قال :

« انا رأيى ان محدش يجيب له سيرة بالحكاية دى بكره ! »

هتف الاب :

« ازاى يامحسن ؟! »

« زى الناس يابابا .. مراد مش صغير ، والدنيا لازم تعلمه ! » .

« ده شرب خمره .. فاهم دى معناها ايه ؟! »

قالت سعاد :

« معناها ان مراد تعبان جدا يابابا ، وان محدش فينا حاسس بيه ! »

وكانت المفاجاة ان هتفت محسنة :

« انا موافقة ! »

ولم يك رد محسنة هذا هو المفاجاة الوحيدة فى الامر ، فلقد كانت محسنة بالذات ، دونا عن الجميع ، قد اشتهرت بتلك الصرامة التى كانت تتميز بها كل آرائها .. غير ان المفاجاة الحقيقية

هى تلك النبرة الدامعة التى بللت كلماتها ، ورغم انها اصغر الجميع سنا ، الا انهم جميعا ، وبلا استثناء ، التفتوا نحوها .. قفزت محسنة من مجلسها ، وقفت ، واجهت الجميع ، وانطلقت كالسيل تتحدث :

« ايوه انا موافقه .. مراد تعبان ، مراد كان تعبان من مده ، كان بيتقطع ، يمكن احنا مش موافقين على اللى هو عمله ، لكن هو مقتنع بيه ، عنده امل انه يحقق حاجة فى حياته ، حاجة هو عايزها ، مش احنا اللى لازم نعوزها له .. حاجة غلط ، حاجة صح ، مش مهم ، المهم انه عاوزها ، ودى حياته .. كلنا وقفنا ضده ، وانا معاكم ، لكن .. لكن لما كلمنا عن ثريا محدش فينا كلف خاطره انه يقف جنبه ، انه يسأله ، انه يهون عليه ! »

« انا سألته ! »

هكذا صاح الاب ، فردت محسنة :

« ايوه سألته يابابا .. لكن عملت ايه بعد السؤال .. سبته يتحرق من جوه ! »

صرخ عم رمضان :

« يقوم يسكر ؟! »

هتفت الام :

« شباب يارمضان . شباب ! »

« يقوم يسكر ؟! »

قالت سعاد بصوت انكره عليها الجميع :

« انا سألته هو عمل كده ليه يابابا .. سألته وكان اسامه واقف جنبى ! »

« وقال لك ايه ؟! »

واذا كانت الدكتورة سعاد قد اشتهرت فى العائلة بانها ذات « دمعة ناشفه » ، فان تلك الطبقة الرقيقة من الدموع التى غلفت عينيها ، قد فعلت فى الجمع فعل السحر .. قالت :

« قال ان نفسه يضعف .. انه نفسه يبقى عيل مرة ! »

« عيل .. امال هو ايه ؟! »

صرخت محسنة :

« راجل عنده عشرين سنة يابابا .. راجل عنده عشرين سنة ؟ »

واندفعت محسنة وقد استبد بها الانفعال ، واختفت فى الداخل .

وساد السكون . وكان لابد لليلة أن تنتهى !

●●●

عندما كانت سعاد وزوجها يغادران البيت مع حسين وسميرة ، تنهد محسن قائلا :

« معلش ياجماعة .. أنا لسه مافتحتش الشنط ! »

وامنت الام على قوله :

« آه والنبى ياولاد . الشنطة جابها النهاردة من اللوكاندة ، وآهى بحطتها من ساعة ماجابها .. زى ماهى ! »

لكن محسن ، لم يقل هذه الليلة ايضا ، متى سيفتح الحقائب ، ومتى سيقدم الهدايا .. وكان الاربعة ، وهم يهبطون السلم الى الطريق ، يعلمون الآن علم اليقين ، انهم سيلتقون فى البيت الكبير فى الغد ! .. دون أن يفصح أحدهم عن هذا .

●●●

كان الصمت يسود السيارة ، وكان أسامة هو الذى يقودها هذه المرة عندما سألته سعاد :

« تفتكر مراد حايتعب الليلة قوى يا أسامه ؟! »

« ضرورى ياحبيبتى .. ده عنده شبه تسمم ! »

« الولد تعبان قوى ؟! »

« كان لازم نسأله .. كان لازم نعرف ايه الحكاية ! »

همت سعاد بالنطق لكنها تراجعت ، فلقد تنبهت فجاة . انها حتى لم تكلف خاطرها بالسؤال ، لم تفكر فى الاقتراب من مراد .. مراد الصغير الذى أصبح شابا ، الطفل الذى حملته وهننته كثيرا وداعبته كثيرا ، وتذكرت سعاد ، وربما لاول مرة ، أن مراد — ابدا — لم يك فى يوم من الايام طفلا ، ولا صبيا .. وانه نشأ فى وسطهم كالغريب ، كان حتى وهو صبى فى المدارس ، يتصرف معهم كأنه رجل بالغ .. خفق قلبها برفق ، جاشت نفسها ، انتبهت انها لا تعرف عن شقيقها شيئا .. هتفت :

« أسامه ! »

والتفت نحوها الدكتور أسامه دون رد .. فوجدها قد انخرطت فى بكاء حار .. وكان يعلم أن أسلم الطرق هو الصمت ، فلزمه .. وظل صامتا حتى جلس كلاهما بجوار الاخر فى الفراش ، وكانت

عينا سعاد لا تزالان مبللتين بالدموع !

●●●

« كلمت محسن ياحسين ؟! »

وكان حسين وسميرة أيضا فى السيارة عندما وجهت اليه زوجته هذا السؤال .. ولقد هم بأن يرد عليها لولا ذلك البركان الذى انفجر فى داخله فجاة ، فالتفت نحوها بحدة لا يدرى مصدرها ..

« مالك بتبص لى كده ليه ؟! »

« احنا فى ايه والا فى ايه ياسميرة ؟! »

« آهو انتوا كده ، تعملوا من الحبة قبة .. هو ايه اللى حصل ؟! »

زمجر حسين :

« مانتيش عارفه ايه اللى حصل ؟! »

« دى حاجه عادية جدا .. شاب طايش شرب له كاسين مااستحملش ! »

« وهى دى المشكلة ؟! »

« حسين .. انت بتكلمنى كده ليه ؟! »

« علشان حضرتك معندكيش دم ! »

« حسين ! »

« بلا حسين بلا زفت ! »

« أنا ما احبكش تكلمنى بالشكل ده ! »

« آهو ده اللى عندى ياسميرة . عاجبك والا لا ؟! »

كانت سميرة ترتجف حقا ، شلتها المفاجاة فوقفت أمامه ذاهلة لا تدرى ماذا تفعل ، وكانا قد وصلا الى البيت وقد احتدم الغضب فى صدر كل منهما لسبب لا يدريه .. ومن المؤكد أن منظر سميرة وهى تقف امامه هكذا ، قد استفز حسين اكثر ، من المؤكد انه اثار بركان غضبه بصورة اعنف ، فلقد صرخ :

« يبقى اخويا بيموت قدام عنيكى وانتى ولا هامك حاجة غير مصلحتك ! »

صرخت هى الاخرى وكان الفراش بينهما :

« ولما هو بيموت .. سبته وجيت ليه ياباشمهندس ! »

« سميرة ! »

جاءت صرختة هذه المرة هديرا غاضبا مدويا ، كان حسين ينتفض غضبا منها جلست سميرة فوق حافة الفراش صامتة ، وكانت

شاحبة تماما ، ويداها ترتجفان ارتجافا ظاهرا ..
« كويس خالص .. اقول لك كلمة تمثلى على الدور اياه ! »
لكن سميرة لم ترد .. ظلت ترتجف وتزداد شحوبا ، وظل هو يصرخ ويصرخ ، يذكرها بما فعلته ، بقسوة قلبها ، بعنادها ، باصرارها على دفعه الى ما لا يريد .. كان حسين يلقى بحممه فى هواء الغرفة فلا يتلقى سوى الصمت ، والوجه الشاحب ، والشفتين اللتين تحول لونهما الى ذلك اللون الازرق الداكن ، وكانت يداها تعتصران بعضهما .. و .. و .. وكان لابد لحسين من ان ينتهى ، وكان لابد له وقد اخرج كل ماكان يعتمل فى صدره من ان يهدأ ، وان يشعل سيجارة ، وان يجلس على حافة الفراش المقابلة ، وان ينظر الى سميرة ، فيخفق قلبه حنانا .. وان ياتى صوته رقيقا رقيقا رقيقا :
« سميرة . انا آسف ! »
لكن سميرة ظلت جامدة فى مكانها .
« سميرة .. حقك على ! »
وكأن سميرة تحولت الى تمثال جامد .
« سميرة .. انا قلقان على مراد ! »
وهنا فقط ، رفعت اليه سميرة عينين حمراوين ليست بهما دموع على الاطلاق . وعاد حسين يهمس وهو يقترب منها :
« انتى عارفه انى باحب مراد قوى ! »
وهمست سميرة بصوت جد حزين :
« علشان كده انا كنت عاوزه اتكلم معاك فى موضوع تانى . علشان تنسى شوية ! » .
تقلصت ملامح حسين ، تقلصت وكانه يعانى من آلام مبرحة . نهضت سميرة ، اخذت راسه بين ذراعيها ، دفنت راسه فى صدرها زفر حسين زفرة قوية وكانه على وشك البكاء ، قالت سميرة وهى تقبل راسه :
« احضر لك العشا .. ياحبيبى ؟! »
وامتدت يد حسين الى يد زوجته . فقبلها . وغاب كل منهما فى احضان الآخر !

●●●

كانت الساعة قد شارفت على الثالثة صباحا .. وكان البيت الكبير مظلما عدا غرفة مراد .. وفى الغرفة ، كان مراد يجلس فى

الفراش وعلى شفتيه ابتسامة شاحبة ، وامامه ، على الطرف الاخر من الفراش ، كانت محسنة مكومة متداخلة فى نفسها . وكان الهدوء شديدا ، ومراد يختم قصته بقوله :
« اللى حز فى نفسى يامحسنة مش ده ، مش ان ثريا حاتتجوز ، لانها لازم تتجوز فى يوم من الايام .. اللى حز فى نفسى انها كذبت على ، خدعتنى ! »
« مين اللى قال لك انها خدعتك ؟! »
« أمال اللى عملته ده كان ايه ؟! »
« ليه ماتقولش حب ؟! »
« هه ؟! »
« مش يمكن اهلها ضغطوا عليها ؟! »
« مش ممكن ! »
« مش يمكن هى شافت الـ .. .. »
وتوقفت محسنة عن الحديث . مال مراد نحوها متوسلا :
« محسنة .. انتى أختى .. وانتى بنت .. قولى لى .. قولى لى يمكن انا مش فاهم ! »
تنهدت محسنة وبدت فى عينيها الحيرة ..
« مالك يامحسنة ! »
« عاوز تعرف ؟! »
« انا اخوكى يابت . انا ميمى بتاع زمان . انتى نسيتى ؟! »
« مراد .. انا كمان تعبانه ! »

●●●

عندما سرى صوت المؤذن فى سكون الفجر يعلن للناس أن الصلاة خير من النوم ، كان عم رمضان راقدا فى فراشه مفتوح العينين .
« انت صاحى يارمضان ؟! »
هكذا جاءه صوت زوجته ، فقال :
« وهو انا نمت علشان اصحى يابهية ؟! »
« العيال لسه صاحيين الاتنين ! »
« سيبيهم .. هم يعرفوا بعض أكتر مننا ! »
« مش حاتتوضى علشان تصلى الفجر ؟! »
« بلاش يحسوا اننا صاحيين .. سيبيهم ! »
« رمضان ! »

« مالك ؟! »
« انا خايفه على مراد ! »

●●●

« ماتخافيش ! »
هكذا قال مراد لمحسنة بصوت خافت ، فردت متسائلة :
« طب ازای ؟! »
« بکره بسیونی هایرجع . بس خلیکی بنی آدم معاه ! »
« ازای ؟! »
« أقول لك ولا تزعليش منى ؟! »
« قول يامراد ! »
« اصل انتي عامله زی الشاويش .. خوفتي الراجل منك ! »
« انا غلطانة ؟! »
« جدا ! »
« طب اعمل ايه ؟! »
« حبيه يامحسنة .. حبيه حتى .. حتى ولو كان ميكانيكى ! »

ولم تنطق محسنة .. نظرت الى شقيقها فسرت رعدة دافئة فى اوصالها ... ونظر اليها مراد ، وكان يبتسم كانه فيلسوف صغير ، قال :

« الدنيا بدات تعلمنا يابنتى .. قومى اعملى لنا كباية شاى علشان دماغنا تصحى ونحفظ دروسها كويس !! »

... ...

و ... ولقد مضت الايام بعد ذلك ، تمالك مراد نفسه من اثر الصدمة واستغرق تماما فى عمله الجديد بالورشة .. وتصافت محسنة مع بسيوني وبدآ معا حوارا جديدا حول الهجرة والدراسة فى الخارج وفائدة الوطن وحقه علينا .. اما حسين فلقد استخرج لمحسن كل الاوراق المطلوبة ، واستوفى كل الشروط ، وسرى فى المصنع همس بانه حصل على عقد عمل فى الخارج ، وقال البعض أن شقيقه المهاجر اصبح مليونيرا وانه جاء يطلب مساعدة أخاه فى ادارة ثروته التى جمعها ، وأن المهندس حسين رمضان لم يحصل علي عقد عمل بالخارج وانما هو ينوى الهجرة الى الابد ، ولقد استملح حسين هذه الشائعات واصابته بنوع من السعادة الخفية ، وهدات سميرة لكنها كانت تسال زوجها كل يوم ان كان اخوه قد ارسل « التلكس » الى كندا ، وعندما انباها حسين ذات ليلة أن محسن ارسل التلكس امامه من فندق الشيراتون ، اخذت تساله ان كان الرد قد جاء من هناك !!.. أما الدكتورة سعاد فلقد راحت تنتظر اشارة السفر في هدوء ، وعادت الى حياتها المعتادة مع زوجها الدكتور اسامه الذى كان يزداد سعادة كلما تأخر موعد السفر يوما .. أما عم رمضان وزوجته الست بهية هانم ، فلقد راحا يتجاذبان اطراف الحديث فى كل مساء ، فى موضوع شغل بالهما الى حد كبير .. فهل من الافضل ان يموت هو قبلها ، ام الافضل ان تموت هى اولا ؟!

●●●

نظر مراد الى الاسطى امام ، كبير عمال الورشة ، وقال :
« يعنى نسرق الناس يا أسطى امام ؟! »
وبدا الامتعاض على وجه الاسطى امام وهو يقول :
« جرى ايه ياباشمهندس ، انت حاتعلمنا أصول الشغل ؟! »
كان مراد ، منذ ان اتى الى الورشة ، يعلم ان الاسطى امام

يتحرش به ، ويتصيد الاسباب للخلاف معه ، كان قد تنبه الى هذا وامر به الى فهيم قائلا :

« انت صاحب الورشة يافهيم وانا لازم اقول لك ! »

ابتسم فهيم وتمتم :

« طب مالنت كمان صاحب الورشة يامراد ! »

لكن مراد لم يقتنع بمنطق صديقه . فلقد كان الان يعلم تماما أن الاسطى امام لو ترك العمل بالورشة فلسوف تخسر كثيرا ، ذلك ان الغالبية العظمى من الزبائن كانت تاتى على اسمه ، كان امام صديقا لاغلب اصحاب السيارات من الاطباء والمحامين والصحفيين وبعض الفنانين ، كانت له عزوة ، وكان موقف مراد حرجا للغاية حتى فكر ذات يوم ان يترك الورشة ويعود الى الجامعة ، غير انه تذكر كل ماحدث عندما اتخذ قراره ، وعز عليه أن يهزم بسرعة ، فتقرر ان يخوض المعركة وأن ينتصر .

« نحسبها سوا ؟! »

هكذا قال مراد للاسطى امام ، وهو يبتسم ، لكن هذا زمجر فى وجهه :

« احسب ياباشمهندس لما نشوف اخرتها ! »

« دلوقت ، ايه اللى احنا عملناه فى العربية دى ؟! »

« نضفنا البوجيهات والبلاتين ! »

« ودى اجرتها كام ؟! »

« قول جنيه جنيه ونص ! »

« لا مش حاقول ، عاوز اعرف بالضبط كام ؟! »

نظر اليه امام فى حدة فاستدرك مراد :

« علشان اتعلم يااسطى امام ! »

تململ امام فى وقفته وقال :

« جنيه ! »

« طب ليه ناخد منه ثمانية جنيه ؟! »

« مانى قلت لك ! »

« يعنى نغشه ، تكدب عليه ، نقول له احنا غيرنا البوجيهات والبلاتين راحنا ماغيرناهمش ؟! .. طب واذا عرف ؟! »

« حايعرف منين بس ؟! »

« حد يقول له ! »

« محدش حايقول له الا انا ! »

ايقن مراد ان لا فائدة فى الاسطى امام ، ايقن ان الامر يحتاج منه الى شيء من الحزم ، أحس انه واقع فى حيص بيص وانه لابد وان يكون ذا موقف واضح .. قدم تسعة جنيهات الى الاسطى امام ، فساله هذا :

« ايه دول ؟! »

« رجعهم لصاحب العربية ! »

اربد وجه الاسطى امام فى عنف بالغ ، واضطرب مراد وهو يستمع الى الرجل وهو يقول من بين اسنانه وقد استبد به الغضب :

« يعنى اقول له انى كنت باسرقه وانك انت اللى حشت عنه ؟! »

« عيب يا أسطى امام تقول كده ! »

« العيب هو اللى انت بتعمله ياباشمهندس ! »

قال الاسطى امام هذا وانصرف الى آخر الورشة أستعدادا لتغيير ملابسه ومغادرة المكان .. كان العمال الاربعة قد توقفوا عن العمل وراحوا يرقبون ماتتمخض عنه الاحداث ، وكان صاحب السيارة فى الخارج يضغط البوق كل بضعة ثوان استعجالا لباقى النقود .. وشعر مراد أنه يسبح فى فراغ ، كان يعلم علم اليقين انه لو تراجع فى موقفه فلسوف يصبح عليه أن يغادر الورشة الى الابد ، ذلك أن الكلمة ستصبح كلمة الاسطى امام . ولسوف يكون وجوده بلا فائدة .. كما كان يعلم ايضا انه ان لم يتراجع فلسوف يغادر امام الورشة ، وسيصبح عليه ، حتى لا يفعل امام هذا ، أن يغادر هو الورشة .. ففضل ان يغادر الورشة بكرامته ، صاح فى صاحب السيارة :

« تسمح ياسعادة البيه ! »

كان صاحب السيارة طبيبا ، حديث العهد بالمهنة ، وكان قد تعرف على مراد وعرف قصته فى الايام الماضية ، تقدم منه صائحا :

« فيه حاجة ياباشمهندس ؟! »

وبصوت واضح النبرات عال وصل الى أسماع كل من فى الورشة قال :

« الاسطى امام كان فاكرنى غيرت البوجيهات والبلاتين ، اصل

انا اللى اشتغلت فى العربية ، الحساب جنيه واحد بس ! »

قال هذا وهو يقدم للطبيب الشاب الجنيهات التسعة ، فنظر اليه هـذا فى دهشة ممزوجة بسعادة بالغة ، ذلك أن هـؤلاء الذين يملكون سيارات قديمة ، يعرفون مدى النزيف الذى يصيب دخولهم فى اصلاح السيارة ، أخذ الطبيب النقود وهو يقول غير مصدق :

« مش معقول ، يعنى الحساب جنيه بس ؟! »

هز مراد راسه ايجابا ، وفى حماس بالغ قدم الطبيب له جنيها آخر وهو يهتف :

« الجنيه ده علشانك ! »

ثم توقف كأنما شعر بالحرج عندما تذكر ان مرادا ليس عاملا ، فهمس متسائلا :

« أو . كى ؟! »

ابتسم مراد وهو يأخذ الجنيه قائلا :

« أو . كى ! » .

ونسى الطبيب ، فى غمرة فرحته ، ان السيارة كانت فى حاجة الى ضبط الموتور ، أو ربما وجد السيارة فى غنى عن هذا الضبط ، فلقد ركبها وانصرف مسرعا ..

وكان الجو فى الورشة لازال متوترا عندما التفت مراد نحـو العمال ، فوجدهم يبتسمون ، وشجعته ابتساماتهم أن يتقـدم من الاسطى امام الذى كان قد تباطأ فى تغيير ملابسه ، وقف الى جواره ربت على كتفه ، دس الجنيه فى جيبه وهو يقول :

« اظن الجنيه ده بتاعك مش بتاعى ! »

التفت اليه امام فى حدة فابتسم اكثر ثم همس :

« انت بتعمل ايه يا اسطى امام ؟! »

هم امام بالحديث لكنه لاحقه :

« حاتسيبنى لوحدى وتطلعنى صغير قدام الناس ؟! »

وهكذا انتهت المشكلة الاولى !

●●●

فى المعمل كان بسيونى يهتف موجها حديثه لمحسنة :

« طب افرضى جت لك بعثة ! »

« مش عاوزه لف ودوران ! »

« ودى فيها لف ودوران يامحسنة ، انا باتكلم جد ! »

« اذا كانت البعثة دى حاتضيف لى حاجة جديدة اطلع علشان افيد بلدى ، انما اذا كانت الابحاث اللى فيها ممكن تتعمل هنا ، يبقى افضل هنا ! »

« خلاص . اتفقنا ! »

نظرت اليه محسنة وقد اكتشفت فيه حدة نارية كانت مدفونة فى أعماقه ، الهبت عواطفها تلك الحدة بقدر ما استفزت عنادها ..

ظلت تنظر اليه مستغرقة حتى سألها :

« بتبصى لى كده ليه ؟! »

« انت اتغيرت قوى يادكتور ! »

« البركة فيكى ! »

قالها فى وضوح وجلاء ، ووصلتها الرسالة كاملة ، وكانت عيناه فى عينيها ، وبدلا من ان يثور العناد فى صدرها ، استشعرت لذة فائقة كانت تسرى فى أوصالها ، أرخت أهدابها ، عادت الى المخابير والمحاليل وهى تهمس :

« ماتبصليش بالشكل ده ! »

●●●

توقفت السيارة الصغيرة أمام الورشة ، وعلا بوقها مناديا ، فصاح الاسطى امام وكان منكبا فوق أحد الموتورات :

« شوف الاستاذة يارجب ! »

التفت مراد نحو الخارج فجاءه صوت امام خافتا :

« دى صحفية ! »

تفحص مراد وجهها من خلال نافذة السيارة وكانت تدخن وهى تتحدث الى رجب ، سأل :

« اسمها ايه ؟! »

« سهام عمر ! »

« دى اللى بتكتب فى مجلة اضواء ؟! »

« آهى بتكتب فى الجرانين واسمها بيطلع فيها وبيقولوا عليها مشهورة !! »

تقدم مراد من باب الورشة وراح يتمعن فى ملامحها .. كانت سمراء ، ترتدى نظارة بيضاء ، ذات شعر منسق بلا هدف ، وأنف محدد الملامح ، وكان صوتها قويا :

« انا عاوزه العربية دلوقت يارجب ، طب اشتغل ازاى ، امشى على رجليه ؟! »

« يامزمازيل مش ممكن ، انتى عارفه أن الـ . . . . . . »

« فيه ايه يارجب ؟! »

التفتت سهام نحو مراد فلم ينظر اليها ، خاف ، جاءه صوت رجب ؟!

« العربية بتقطع ، عاوزه كشف على الكهربا والبيكات سوا ! »

« طب ماتعملها ! »

« دى عايزاها وهى واقفه ! »

« ماتقف ... اهلا وسهلا ! »

قال هذا والتفت نحو سهام باسما :

« ممكن تنتظرى ساعة ؟! »

هتفت به سهام وكأنها تتشاجر معه :

« بس مش أكتر ! »

وهكذا هبطت سهام من السيارة فواجهته ، ووقف كل منهمـــا يتطلع الى الآخر لاول مرة !

●●●

فى مساء احد الايام كان المهندس حسين رمضان يقود سيارته فى شوارع القاهرة وقد استبدت به النشوة .. ايقن فيما لا يدع مجالا للشك ان الرد على التلكس قد وصل من كندا ، فمنذ نصف ساعة لايزيد كان يجلس مع سميرة فى البيت امام التلفـزيون وقد ملأه التأفف ، لم يك لسميرة من حديث سوى السفر ، كانت ذات قـدرة هائلة على استجلاب أحلام اليقظة ، راحت تبنى القصور فى كندا ، وتركب السيارات ، والطائرات ، وتسافر ، وترتدى أفخر الملابس .. وكانت أحلامها جميلة لولا انها كانت تمثل عنصرا ضاغطا على اعصابه ، فى تلك الساعات جاءه رنين التليفون ، وعبر الاسلاك سرى صوت محسن :

« حسين ؟! »

« أيوه مين ؟! »

« انا محسن ! »

هتف حسين لتسمع سميرة :

« اهلا يامحسن ، ازيك ! »

« تقدر تجينى ؟! »

« قوى قوى ، فين ؟! »

« انا فى الشيراتون ! »

« مسافة السكة ! »

قال هذا وهو يضع السماعة ويلتفت نحو سميرة وقد توترت أعصابه ، وكانت سميرة بدورها قد تركت مكانها وجاءت اليه :

« فيه ايه ياحسين ؟! »

« محسن عاوزنى أروح له الشيراتون دلوقت ! »

« يبقى الرد على التلكس جه ! »

« محدش عارف ! »

واندفع حسين الى غرفة النوم ليبدل ملابسه ، وهكذا كان يقود سيارته فى شوارع القاهرة فى طريقه نحو الفندق الشهير للقـــاء اخيه ، وقد اعتملت فى صدره عشرات الاحاسيس ..

عندما اندفع نحو الكافيتريا ، راح يبحث بعينيه فى انحاء المكان بسرعة .. وهناك ، بجوار الحائط الزجاجى الذى يطل على النيل رآه .. كان محسن يجلس وحده الى احدى الموائد ، وكانت عيناه ساهمتين ، وحقيبة أوراقه الفاخرة ، تقبع على المقعد المجاور له .. وهكذا ايقن حسين ، أن الرد على التلكس قد وصل بالفعل من كندا . وان الاحلام قاربت على التحقق !

●●●

دق جرس التليفون فى الورشة ، ثم انقطع عندما رفعت السماعة، وبعد ثوان كان العامل الذى رد على التليفون يصيح :

« ياباشمهندس ! »

كان مراد قد سقط بنصف جسده الاعلى داخل موتور احـدى السيارات ، صاح :

« مين يافتحى ؟! »

« الاستاذة ! »

وتوقفت يدا مراد عن العمل ، ثم انفلت مسرعا فارتطمت رأسه بغطاء الموتور ، اندفع نحو التليفون وهو يشعر بدبيب حادث سعيد يسرى فى اوصاله ، امسك بالسماعة وهتف :

« آلو . »

جاءه صوتها عنيدا :

« مراد ! »
« أيوه ! »
« اسمع يامراد ، انا لازم أشوفك ! »
سرت البرودة فى أوصاله ، قال من حلق جاف :
« طب ماتتفضلى ! »
« لا .. أنا عاوزة أشوفك بعيد عن الورشة ! »

● الصورة التاسعة ●

ما ان جلس حسين امام شقيقه حتى ساله هذا :
« تشرب ايه ؟! »
كان وجه محسن شاحبا على غير ما اعتاد حسين أن يراه منذ جاء من كندا ، وحلت فى عينيه نظرة غريبة ساهمة محل تلك النظرة الصارمة المحددة الهدف .. تمتم حسين بانه يرغب فى احتساء فنجان من القهوة غير أن محسن اوما الى الكأس الفارغ فوق المائدة وقال فى تكاسل :
« ماتاخد معايا كاس ؟! »
ووافق حسين ، وجاء الكأس ، غير أن محسن ظل فى صمته !
كان الموقف غريبا كل الغرابة ، ولقد راح حسين ينظر الى اخيه مليا ، الى ملامحه وملابسه وهيئته وجلسته .. اين هذا من محسن الذى هاجر منذ عشر سنوات ، الاسنان الصفراء والبشرة الكالحة والعينان الوقحتان ، والشعر الاشعث ، طال الصمت فاستشعر حسين حرجا لم يجد منه مخرجا سوى أن يميل نحو اخيه :
« مالك يامحسن ؟! »
كان الآن ، وعندما التفت نحوه محسن وقد علت شفتيه ابتسامة هادئة ، موقنا اشد مايكون اليقين ، ان الرد قد جاء من كندا ، وان العقد اصبح قاب قوسين او ادنى من التوقيع ، وأن الحلم قد شارف على التحقق ، وان سميرة سوف تزغرد الدماء فى عروقها سعادة ، وعندما اعتدل محسن فى جلسته دق قلب حسين فى عنف ، رشف محسن من الكأس وقال :
« فاكر ماجده حسن ؟! »
لم يفهم حسين من الامر شيئا ، احس وكأن محسنا قد دلق الكأس البارد فوق راسه ، اختلطت الافكار فى ذهنه فردد دون وعى وفى تساؤل : « ماجده حسن مين ؟! » ، قال حسين « ماجدة

بتاعة الحلمية الجديدة ؟! » . فهتف حسين وقد أضاء فى ذاكرته وجه مليح وشعر منساب وعينان سوداوان واسعتان : « طبعــا فاكرها ! »

« أنا قابلتها النهاردة ! »

ولم يفهم حسين شيئا ، فلقد لاذ محسن بالصــمت مـرة اخرى !

●●●

كذلك لم يك مراد يفهم شيئا وهو فى طريقه الى الكازينو الذى حددته سهام عمر الصحفية بمجلة أضواء .. كان ماحدث بينهما فى الساعة التى مكثتها فى الورشة غريبا وبسيطا فى نفس الوقت ، فعندما التقت عيناها بعينيه فى تلك اللحظة الاولى ، شعر — ربما لاول مرة فى حياته — بالخجل .. كانت السيجارة لاتزال فى يد سهام ، وعيناها تطلان من خلف النظارة الطبية الرقيقة فى جسارة لم يتعودها مراد فى عينى ثريا ، سألته :

« انت جديد فى الورشة ؟! »

ابتسم ، وضحك ضحكة خفيفة ، قال :

« ايوه ! »

« اسمك ايه ؟! »

« مراد رمضان ! »

ووصل الاسطى امام فى نفس اللحظة قائلا :

« الباشمهندس مراد ، صاحب الباشمهندس فهيم ، وبيدرس فى الجامعة ! »

قال الاسطى امام هذا ثم انصرف ليرى ما بسيارة الاستاذة ، وتركت أصابع سهام السيجارة لتسقط فوق الارض ، واطلت من عينيها نظرة متسائلة ، فى صوت خافت جاء صوتها :

« انا مش فاهمة حاجة ! »

« عاوزه تفهمى ايه ؟! »

« طالب هندسة ؟ »

« لا . آداب ! »

« وايه اللى جابك هنا ؟ »

« غاوى ! »

« والكلية ؟! »

« مش عارف ! »

فى حسم بالغ قالت :

« لازم تعرف ! »

هكذا بدا بينهما الحديث ، سار مراد الى حيث كان يعمل فى احدى السيارات فسارت خلفه ، راحت تسأله فراح يجيب ، فجأة ، أحس وكأن كل شىء يدعو الى الضحك فضحك .. كانت سهام تتحرك فى الورشة وكأنها واحدة من عمالها ، كانت تتحدث فى صوت عال ، تقدم السجائر للعمال وتسألهم عن أحوالهم ثم تعود اليه فتسأل وتسأل .. طلبت كوبا من الشاى وحملت مقعدا جلست عليه وراحت تلاحقه بالاسئلة ، فأخذ يجيب دون أن تتوقف يداه عن العمل ، قص عليها كل ماحدث ، حكى لها موقف أبيه وامه واخوته جميعا ، راحت تنظر اليه وكأنه حيوان من نوع غريب ، وعندما سألته : « مالكش صاحبة ؟! » ، هتف فى سخرية :
« سابتنى علشان مش عاوزه ميكانيكى ! » ، قالت سهام :
« انا لازم اكتب عنك ! » ، سألها : « ليه ؟! » قالت : « أصلك مجنون ! »

ثم أردفت بعد لحظة صمت :

« وانا باحب اكتب عن المجانين ! »

وعندما انتهى اصلاح السيارة ، سألته عن الاجر ، فسأل الاسطى امام ، فقال هذا :

« تنضيف بيكات بس ! »

التفت نحو سهام وقال :

« نص جنيه ! »

« ايه ؟! »

« نص جنيه ! » .

« انت بتغازلنى ؟! »

اربدت ملامحه فجأة ، احس مراد وقتها وكأن سهام توجه اليه اهانة ، شعر بالجرح الذى سببته ثريا ينزف فى صدره ، قال فى صوت بارد وهو يواجه نظرتها المقتحمة تلك :

« لما احب اغازلك مش حاغازلك هنا ! »

هتفت :

« مش قصدى ، اصل عمرها ماحصلت ! »

دفعت الخمسين قرشا ومضت ، ولاحظ مراد ، انها كانت تتعثر وهى تركب السيارة ، فاندهش !

●●●

لم يشعر حسين ، فى اى وقت من اوقات عمره ، ان أمله خاب مثلما شعر فى تلك الليلة وهو يجلس الى شقيقه محسن . كان محسن قد طلب منه ان ينتقلا الى الدور العلوى فى الفندق الفاخر القائم على شاطىء النيل فى القاهرة ، وكانت هذه هى المرة الاولى التى يدخل فيها حسين الى مثل هذا المكان الخافت الضوء الهامس الاصوات الملتهب بالالوان .. كان حسين يعرف ان « ماجده حسن » هذه هى السبب المباشر الذى دفع بمحسن الى الهجرة ، كان محسن يحبها حبا ملك عليه كل عواطفه ، غير ان ماجده ، رغم حبها لمحسن ، فضلت أن تتزوج رجلا غيره لاسباب لم يعرفها حسين .. وعندما استدعاه محسن الى الفندق ، بل عندما انفكت عقدة لسانه وراح يحكى له كيف التقى بها فى ردهة الفندق صباح اليوم مصادفة ، وكيف علم انها اصبحت مطلقة ، وانها موظفة كبيرة فى وزارة الصناعة ، وانها جاءت الى الفندق لترافق وفدا فرنسيا جاء الى مصر بمشروعات جديدة ، لم يخطر ببال حسين للحظة واحدة ان شيئا مما كا نيقوله محسن من الممكن أن يتحقق . ذلك أن محسن قال ذات لحظة غامضة وغريبة :

« مش عارف ياحسين ، من ساعة ماشفتها وانا حاسس انى اتغيرت ! »

لم يك حسين يعرف شيئا عن زوجة محسن واولاده ، اكتشف أنه حتى قد نسى اسم زوجة شقيقه الكندية التى هى من أصل المانى ، راح يرقب اخاه الاكبر فى ذهول ممزوج بسعادة فائقة سببها الواضح انه اصبح قريبا من محسن وانه اصبح محل ثقته ، قال :

« محسن .. انا مش فاهم بالضبط انت عاوز ايه ؟! »

« عاوز اتكلم مع حد ! »

كان محسن واضحا اشد ما يكون الوضوح ، كان يتعذب ، ساله حسين :

« ما اتفقتوش تقابلها تانى ؟! »

« لا ! »

« ماتعرفش نمرة تليفونها ؟! »

« لا ! »

« ما سالتهاش ليه ؟! »

« ما اعرفش ! »

« طب وناوى تعمل ايه ؟! »

« مش ناوى اعمل حاجة ! »

« طب قول لى .. الرد وصل من كندا والا لسه ؟! »

وانبثقت من عينى محسن نظرة نارية ، اختفت تلك النظرة الحالمة فى لحظة ، وانطلقت من العينين القريبتين ، كالرصاصة ، تلك النظرة التى جعلت حسين يزدرد لعابه !

●●●

جلست سهام عمر فى الكازينو الهادىء تنتظر وصول مراد .. كانت تعلم انها جاءت قبل الموعد بربع ساعة على الاقل ، وكان الامر يبدو لها طبيعيا تماما ليس فيه مايقلق .. غير انها كانت تشعر بقلق غامض يجتاح كل جوانحها ..

وعندما تركت الورشة ، ودفعت الخمسين قرشا ، كانت تشعر بوطأة تلك النظرة الغريبة التى رماها بها مراد .. وعندما ذهبت الى المجلة نسيت الامر برمته ، نسيت كل شىء عنه ، غير انها عندما دخلت الى الاجتماع الاسبوعى الذى يعقد فى المجلة ، وعندما بدأ الزملاء والزميلات فى طرح افكارهم ومناقشتها حول الموضوعات التى يزمعون الكتابة فيها ، اطل مراد من مكان خفى فى داخلها ورفض ان يتزحزح .. ضحك رئيس التحرير وهو يوجه لها الحديث :

« انتى عيانه ياسهام ؟! »

« ليه ؟! »

« اصل محدش سمع صوتك النهارده ! »

قالت فى تذمر :

« انا زى العفريته ! » .

« طب ايه الموضوعات اللى عندك ؟! »

« واحد مجنون ساب كلية الاداب واشتغل ميكانيكى ؟! »

« ايه الجنان اللى فى ده ؟! »

« لان اللى بيسيبوا الكليات دلوقت بيشتغلوا حاجة تانية ! »
« زى ايه ؟! »
« مزيكاتيه ، ممثلين ، بتوع سياحة .. انما ميكانيكى لا ! »
« يمكن محتاج ! »
« أبدا .. اهله واقفين ضده ! »
« يمكن نزوة ! »
« أبدا .. حبيبته سابته لانها مش عاوزه تتجوز ميكانيكى ! »
هتف أحد الزملاء :
« معاها حق ! »

وانفجر – على الفور – نقاش حاد .. فلقد حولت سهام الامر الى قضية ، الى مشكلة ، كانت نظرة مراد تلاحقها فى عنف كالسياط ، أحست – وهى فى الاجتماع – انها أهانته عندما سألته ان كان يغازلها ، قصت على الجميع قصته ، كشفت عن سرها ودهش الجميع عندما ذكرت لهم انه رفض ان ياخذ سوى الخمسين قرشا وسألوها عن مكان الورشة ليصلحوا عنده سياراتهم ، وعندما انفض الاجتماع كان مراد قد تحول فى مجلة « أضواء » الى مشكلة ... هل تشجع شبابنا على ممارسة العمل اليدوى ام نشجعهم على حمل شهادات أصبحت تغرق البلاد من اقصاها الى اقصاها ، وانقسم الجميع الى قسمين .. قسم يؤيد وقسم يعارض .. غير أن الغريب ، أن سهام ، لم تك تعرف الى اى الفريقين تنتمى .. وقال رئيس التحرير :

« اعملى الموضوع يا سهام ، بس لازم تغطى المشكلة من كل جوانبها ! »

وهكذا خرجت سهام من الاجتماع لتتحدث مع مراد بالتليفون .. لم تفكر فى شىء ، لم تك تعرف ماالذى تريده منه بالضبط ، ولم يك فى ذهنها على الاطلاق أن تقول له : « أنا عاوزه اشوفك بعيد عن الورشة ! » .. وعندما وضعت السماعة ، اكتشفت أن اطراف أصابعها قد أصبحت فى برودة الثلج .. فارتجفت !

●●●

قال محسن وهو يجلس بجوار اخيه فى السيارة الصغيرة :
« مش تجيب لك عربية عليها القيمة بقى ياحسين ! »
هتف حسين وكانه يعتذر عما بدر منه :

« البركة فيك بقى يامحسن ! »
« طب اطلع بينا .. عاوز أمشى على النيل شوية قبل مانروح ! »

وطوال الطريق الممتد من القاهرة حتى ضاحية حلوان ، لم ينطق محسن بكلمة واحدة ، وكان حسين يقود السيارة فى بطء تلبية لرغبة اخيه الغارق فى افكاره .. طال الصمت وامتلأت السيارة بدخان السجائر فقال حسين :

« ناوى على ايه يامحسن ؟ »
« فى ايه ؟! »
« فى حكاية ماجده »

ولاذ محسن بالصمت ، لم يرد ، تماما كما لاذ بالصمت عندما ساله حسين ان كان الرد قد وصل من كندا أم لا .. احس حسين فجاة ان اخاه قد كبر ، قد أصبح انسانا آخر غير هذا الذى عرفه ، وفى لحظة كاد أن يطلب من اخيه ان يصرف نظر عن مسالة العقد هذه ، كان صمت محسن له وقر المطارق على اعصابه ، كان صمتا يحوطه غموض بعث بالخوف الى قلب حسين ، الذى كان قد قرر مناقشة سميرة فى الامر كله .. وعندما فتح فمه وهو يهم بالحديث، قال محسن :

« ارجع بينا بقى ، احنا عندنا شغل الصبح بدرى ! »

ودار حسين بالسيارة بعد أن احس بجملة محسن وكانها حجر قد القم اياه .. كاد يسال شقيقه عن معنى ما قاله لكنه تردد ، خاف ان ياتيه الجواب صمتا محيرا مخيفا ، ضغطت قدمه على مفتاح البنزين فانطلقت السيارة تنهب الطريق الى القاهرة مرة اخرى ، ساله محسن دون أن يلتفت اليه :

« انت بتجرى ليه ؟! »

فعاد يرفع قدمه من فوق مفتاح البنزين فى طاعة غامضة ، التفت نحو محسن وكان هذا ينظر الى الطريق جامدا كتمثال ، عاد ينظر امامه فاذا الطريق خال الا من سيارة هنا أو سيارة هناك .. دخلت السيارة بهما الى شوارع المدينة وطافت ولفت ودارت حتى توقفت أمام بيت عم رمضان ، ولم يتحرك محسن ، ظل جامدا فى مكانه ينظر الى الشارع فى سهوم غريب .. التفت نحوه حسين وساله بصوت متردد :

« انت تعبان يامحسن ؟! »

نظر اليه محسن نظرة ساخرة ، وامتدت يده الى المقعد الخلفى ليحمل حقيبته الفاخرة ، فتح الباب بجواره وهو يقول :

« اقدر أشوفك بكره الصبح ياحسين ؟! »

« الصبح انا فى المصنع ، انما انا تحت امرك !! »

« الساعة اتناشر كويس ؟! »

« وهو كذلك ! »

ثم اردف حسين متسائلا :

« فين ؟! »

« فى نفس المكان ! »

هكذا رد محسن وهو يغادر السيارة ، لكنه ، قبل أن يغلق الباب ، انحنى نحو شقيقه وقال :

« على فكرة ياحسين ، الرد وصل ، ونقدر نمضى العقد بكره . تصبح على خير ! »

قال هذا واغلق الباب ، واستدار نحو باب البيت العتيق ، واختفى فى داخله .

غير ان حسين ، ظل دقائق طويلة ، قبل أن تساعده أعصابه على قيادة السيارة !!

●●●

اطلق مراد ضحكة صاخبة . نظرت اليه سهام فى دهشة ، تساءلت :

« ايه اللى بيضحكك ؟! »

« يعنى انا بقيت مشكلة فى مجلة اضواء ؟! »

« مش انت بالذات . المبدأ ! »

« اقول لك على حاجة يا آنسة سهام ؟! »

« قول ! » .

« وعهد الله انتوا ناس قاضيين ! »

● الصورة العاشرة ●

عندما فتح حسين باب البيت ، كانت سميرة تجلس فى انتظاره وقد انتابها توتر شديد .. أما هو ، فلقد كان ساهما حقا .. وطوال الطريق من باب البيت الكبير حتي وصل الى داخل شقته ووقف امام زوجته التى هبت لاستقباله ، كان يحيره شيء غريب ... تلك الشخصية العجيبة التى أصبحت تواجهه تحت اسم « محسن » شقيقه الاكبر .. ولقد كان محسن دائما بالنسبة اليه شيئا شاذا ، انسانا لا ضابط له ولا رابط ، مخلوقا مكونا من مجموعة هائلة من الانفعالات والشرور .. وهو يذكر يقينا ، ان المرة الاولى التي دخن فيها سيجارة كانت مع محسن ، والمرة الاولى التى اقترب فيها من امرأة كانت مع محسن ، وكوب البيرة الاول كان مع محسن ... ان محسن هو الشرور والاثام ، هو المشاكل والمتاعب وعذاب الابوين .. وفى الزمان الماضى ، منذ مايزيد قليلا على عشر سنوات ، وعندما علم بقصة حب محسن لماجدة حسن بنت الحلمية ، ذات الجمال الباهر والعائلة العريقة ، كانت دهشته شديدة لان ماجدة التى رفضت أن تلتقى باغلب شباب الحى ، قد قبلت أن تلتقى بمحسن وان تبادله الحب ... لكنه – عندما رفضت ماجدة الزواج من شقيقه – وجد الامر طبيعيا للغاية ، وان على محسن ان يسلم بانه فاشل ، وانه قد يكون مستمتعا بحياته ، لكنه لا يصلح لان يكون عضوا فى المجتمع ! ..

اشياء كثيرة طافت بذهن حسين فى تلك الدقائق التى مضت منذ ان ودع اخاه ، غير ان المذهل حقا ، هو اسلوب محسن الجديد ، فهل تكفى عشر سنوات لان تغير انسانا الى هذا الحد ؟! .. ان محسن ، الذى لم يك يكف لحظة عن الضحك والثرثرة والتعليق ، اصبح صامتا وكانه تمثال .. اصبح حازما وكانه يدير شئون الكون .. ولقد بدا له امر عقد العمل تافها شديد التفاهة ، ان محسن لم يذكره الا فى لحظة الفراق .. فما الذى يعنيه هذا ؟!

« ايه الاخبار ياحسين ؟! »

عندما سالته سميرة هذا السؤال كانا لايزالان واقفين فى الصالة خلف باب الشقة المغلق ! .

« اعملى لى فنجان قهوة ! »

« انت شارب ؟! »

« كاسين ! »

« امال مالك ؟! »

« مش عارف ! »

قال هذا وسار الى « الانتريه » ، القى بنفسه فوق مقعد وترك لجسده المشدود الاعصاب ان يسترخى ، ظلت سميرة واقفة فى مكانها تنظر اليه ، سالته :

« الرد وصل والا لا ؟ ! »

« وصل ! »

اندفعت نحوه وكل خلجة فى جسدها ترتجف :

« أمال ماقلتليش ليه ؟! »

« آدينى قلت لك ! »

« اتخانقت مع أخوك ؟! »

« اطلاقا ! »

« العقد وحش ؟! »

« ما اعرفش عنه حاجة ! »

« أمال مالك ؟! »

رفع اليها عينين ساهمتين ، قال فى صوت خافت حازم :

« عاوز فنجان قهوة ، وعاوز اقعد ساكت شويه ! »

وعندما تركته سميرة الى حيث المطبخ لتصنع له فنجان القهوة ، أحس بدبيب الخوف يسرى فى أوصاله ،خوف غامض عربيد ، خوف عارم .. وكانت ساقاه ترتجفان !!

●●●

فى تلك اللحظات بالذات ، كان مراد يسير فى شوارع حى المنيل وكأنه يرقص .

بدت له الدنيا غريبة كل الغرابة .. بدا له الناس القليلو العدد وكأنهم مخلوقات من نوع آخر ، ثمة سعادة غامضة كانت تسرى فى دمائه ، تذكر ثريا فابتسم فى سخرية ، دق قلبه فانتابته رعدة ... لم يحدث شىء ، لم يك هناك غزل ولا حب ولا حديث عن العواطف

على الاطلاق ... غير أن الساعات مضت به مع سهام عمر كالحلم .

كانت تكبره بثلاثة اشهر ، عرف أنها تعمل صحفية بالمجلة منذ ان كانت طالبة فى الكلية .. يتيمة الاب تعيش مع أمها فى بيت متواضع فى شارع جانبى من شوارع حى المنيل المكتظ بالناس والاطفال والازواج والزوجات ، قال لها وهو يجلس بجوارها فى السيارة :

« المنيل ده عامل زى معمل تفريخ ، كل اتنين مابتجوزوا ييجوا يسكنوا فيه علشان يخلفوا اتنين يتجوزوا ويخلفوا !! »

ضحكت سهام من قلبها ، قالت :

« ولع لى سيجارة ! »

اشعل السيجارة وقدمها اليها ووجد نفسه يقول :

« تعرفى انى معجب بيكى قوى ؟! »

« وانا كمان ! »

قالتها فى اختصار وبساطة فارتجف ولم يستطع أن يعلق ...

كان الحديث بينهما قد امتد حتى الآن حول العلم والعمل ، كانت ترى فى خطوته تلك تعبيرا عن الذات ، وكان يرى فيها اشباعا لرغبة من رغباته ، كانت ترى أن العلم ضرورى ، وكان يرى ضرورته فى مدى مايضيفه الينا .. نقلت اليه مادار فى الاجتماع فهتف بها ملوحا حتى كاد يدلق فنجان الشاى :

« تعرفى انا عملت كده ليه كمان ؟! »

من خلف زجاج نظارتها راحت تنظر اليه بعينيها هاتين المقتحمتين الثابتتى النظرات .. كانت تنتظر منه ان يكمل الحديث غير انه قال بصوت خافت :

« مدموازيل سهام ! »

« مش اتفقنا مفيش القاب ؟! »

« طب ممكن اطلب منك طلب ؟! »

« اطلب ! »

« اقلعى النضارة دى ؟! »

« ليه ؟! »

« عاوز اشوفك زى ماانتى ؟! »

« لا ! »

قالتها بحسم بالغ فصمت ، ابتسمت وعادت تقول :

« انا لو قلعت النظارة انت حاتشوفنى زى ما انا ، ده صحيح ..

« بس أنا مش حاشوفك يامراد ! »

وانطلقا بعدها ضاحكين !!

كان مراد ينظر اليها وكأنها نوع آخر من البشر .. بدت له ثريا فى لحظة باهتة الشخصية تافهة الملامح والاحلام ، عندما قص على سهام قصة ثريا معه قالت فى اقتضاب :

« عبيطة ! »

« مش كده والنبى ؟! »

« أصلها خايفة من الدنيا ! »

شارفت الساعة على منتصف الليل وكان لابد لهما أن ينصرفا ، قال مراد :

« أنا مش عاوز أمشى ! »

« بس أنا لازم امشى ! »

« اتأخرتى ... مش كده ؟! »

« لا مش كده ! »

« أمال ازاى ؟! »

« أصل أنا لازم أكتب الموضوع النهاردة ! »

هتف فى جزع :

« حاتشتغلى ؟! »

قالت :

« لازم أسلم الموضوع بكره الصبح ! »

« طب يالله بينا ! »

وقبل أن يركب بجوارها السيارة ، اشترط عليها أن يوصلها والا توصله ، قال انه يريد أن يبقى معها أطول فترة ممكنة ، وعندما سألته هذه المرة : « انت بتغازلنى ؟! » ، قال : « لا » .. ولزما بعدها الصمت !

توقفت السيارة وهبطت منها سهام ، وهبط مراد .. سار بجوارها حتى باب البيت ، توقفت ، فتوقف ، قالت :

« مراد ... أنا عاوزه اقرا لك الموضوع بكره ! »

« ياريت ! »

« انت بتروح الورشة الساعة كام ؟! » .

« تسعة ! »

« خلاص ... أنا حاعدى عليك ! »

وعندما امتدت يدها لتصافحه ، أحس كأن تيارا كهربائيا يسرى اليه منها ، ظل ممسكا بيدها لثوان ، همس بصوت متحشرج :

« تصورى ياسهام .. .. .. »

وساد الصمت فلقد كانت تنتظر بقية حديثه ، لكنه قال :

« ولا حاجة .. ولا حاجة .. تصبحى على خير ! »

« وانت من أهل الخير ياحسين ! »

●●●

دس حسين رأسه فى الوسادة وأغمض عينيه لكنه لم يشعر بأية رغبة فى النوم .

أما سميرة ، فلقد ظلت مفتوحة العينين حتى اطل ضوء النهار من خلف النافذة .

●●●

فى التاسعة والنصف دق جرس التليفون فى الورشة . وصاح أحد العمال بعد أن رفع السماعة :

« ياباشمهندس ! »

وكان مراد موقنا ، أشد مايكون اليقين ، انها سهام .. هتف مضطرب الانفاس :

« آلو ! »

جاءه صوتها متعبا :

« مراد ؟! »

« صباح الخير يا استاذة ! »

« أنا مش حاقدر أعدى عليك ! »

أحس فجأة انه شاخ ، همس :

« ليه ؟! »

« مش عارفه اكتب الموضوع ! »

●●●

فى نفس اللحظة كان بسيونى يدلف الى المعمل وقد بدت فى عينيه نظرة صارمة .. كان يعرف أين يجد محسنة فى هذا الوقت بالذات ، انحرف الى اليسار وسار بضعة أمتار بين المعدات ، ثم انثنى الى اليمين ودلف من باب صغير بين دولابين هائلين .. فى غرفة صغيرة صامتة كانت محسنة هناك وقد ارتدت معطفها الابيض ،

بجوارها كان كوب الشاى تتصاعد منه الابخرة ، فى صدر الغرفة كان ثمة نافذة صغيرة يتسلل منها شعاع الشمس واهنا .. أحست محسنة بخطواته فعرفتها دون أن تلتفت نحوه ، قال :

« صباح الخير يا محسنة ! »

« يظهر انك استغنيت عن شرب الشاى معايا ! »

وقف بجوارها فالتفتت نحوه .. طالعتها نظرته فانتابها هذا الضعف السخيف الذى سيطر عليها فى الايام الاخيرة ، ابتسمت وهى تقاوم قائلة :

« مالك .. بتبص لى كده ليه ؟! »

« انتى بتحبينى يامحسنة ! »

كانت هذه هى المرة الاولى التى ترد فيها كلمة الحب على لسان اى منهما منذ أن تعارفا .. شحب وجه محسنة وارتجفت ... جحظت عيناها وراحت تحملق فيه غير فاهمة .. كان .. كان .. كان المفروض أن الحب يجمع بينهما ، كان .. كان .. كان المفروض انه يحبها ، كما كان .. كان .. كان المفروض انها تحبه .. ولكن .. مامعنى كل هذا ؟!

« محسنة .. انا سالتك سؤال ؟! »

« مش فاهمه ! »

« دى مش عاوزه شرح يامحسنه .. سؤال وعاوز الجواب عليه ! »

راوغته :

« ليه السؤال ده ؟ »

« انتى بتحبينى ؟! »

« وايه معناه ؟! »

« معناه انى عاوز اعرف ان كنتى بتحبينى والا لا ؟! »

كان واضحا أن صبر بسيونى قد نفد .. استدارت مبتعدة عنه ، متشاغلة ، قالت :

« انا مش فاهمة السؤال ده لزمته ايه دلوقت ؟ »

قال بسيونى بصوت عال واضح ، صوت من الممكن أن يسمعه من كان فى المعمل خارج تلك الغرفة التى أطلقت عليها اسم « الصومعة » ، فانزعجت ، واستدارت اليه وهو يقول :

« لزمته انك لو كنتى بتحبينى حاروح لوالدك النهاردة

واخطبك ! » .

« من غير ماتاخد رايى ؟! »

« ماهو انتى لو كنتى بتحبينى تبقى قلتى رايك ! »

عادت تراوغ :

« والحب ماله ومال اللى انت بتتكلم فيه ! »

صاح بسيونى :

« محسنة ... كفاية لف ودوران ، خليكى دوغرى ! »

« بسيونى ، انت مش واخد بالك ان صوتك عالى ؟! »

« وهو انا باسرق علشان اتكلم بصوت واطى ؟! »

« مالك يابسيونى ؟ »

« مانمتش طول الليل ! »

« ليه ؟! »

« عمال افكر فيكى .. باحبك ، اعمل ايه ؟! »

ابتسمت رغما عنها ، اجتاحها طرب بالغ ، اضطربت ، دق قلبها، استندت الى المكتب الصغير الذى تكدست فوقه الاوراق والمراجع والذى امتلأت صفحته ببقع الحبر والمواد الكيمائية .. عاد بسيونى يصيح :

« ماتقولى بقى ! »

« طب واحنا مروحين نتكلم فى الموضوع ده ! »

« لا .. دلوقت ! »

كان عنيدا كثور .. هتفت بصوت أنثوى خافت :

« بسيونى .. انت اتجننت ؟! »

« يا اما تقولى دلوقت ، يا اما مش حاتشوفنى وشى حد النهاردة ! »

اربدت ملامحها ، قالت :

« انا مااحبش التهديد ! »

« وانا ما احبش التسويف ! »

تمنت هذه اللحظة ان تفقد عقلها ، ان ترتمى فى احضانه ، ان تحيط عنقه بذراعيها ، ان ... ان .. ان تحبه ، ان تقبله ، ان تعتصر شفتيه بشفتيها ، ان .. ان ..

« محسنة ... قلتى ايه ؟! »

كان غاضبا ، وكان عنيدا .. سمعت صوتها يأتى من بعيد :

« فى ايه يابسيونى ؟ »
« بتحبينى ؟! »
« لا !! »
قالتها محسنة دون أن تدرى كيف خرجت الكلمة من بين شفتيها ولا من اين جاءت !!

●●●

كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشر بنصف ساعة ، وكان حسين جالسا فى نفس المكان ، فى نفس المقعد فى انتظار شقيقه ... كان متعبا متوترا ، عيناه منتفختان ، ورغبته فى التدخين بلغت اقصى درجاتها .. لكن محسن لم يأت بعد ..

الموائد والناس والهمس والساقيات يرحن ويجئن فى نشاط وخفة .. كل شىء فى المكان يوحى بالرفاهية .. سمع أجراسا خفيفة تعزف فى المكان فالتفت ، ورأى ساقيا يرتدى حلابا مزركشا ، وكان الساقى يحمل فى يده سبورة سوداء صغيرة ... كاد حسين يعود الى سهومه عندما لمح اسمه مكتوبا فوق السبورة .. فى البداية لم يفهم ، حملق فى السبورة ، كان المكتوب عليها هو : المهندس حسين رمضان .. نهض الى الساقى .. ساله :

« فيه حاجة ؟! »
« سيادتك المهندس حسين رمضان ؟ »
« أيوه ! »
« تليفون علشان سيادتك ! »
و ... وكان المتحدث هو محسن .. كان يعتذر عن الموعد !

مضى أسبوع امتلأ بالاحداث ، ولقد بدا الامر غريبا كل الغرابة ، ذلك ان الجميع بدوا وكأن كلا منهم قد انفصل عن العالم ، وكون لنفسه عالما مستقلا تماما عن الاخرين .. وفى بعض الاحيان كانت العيون تلتقى فى نظرات مفعمة بآلاف الاسئلة ، لكن الاسئلة ابدا لم تخرج من حيز التعبير بالنظرات الى الصوت المسموع .. شىء غريب هذا الذى حدث فى بيت عم رمضان ... اختفى محسن فجأة ، أصبح لا يأتى الى البيت الا لماما ، ولا يبيت فيه الا نادرا .. اسبوع هو الذى مر ولكنه كان مثل دهر .. ولقد انقطعت مكالمات الدكتورة سعاد ، التى لا تدرى ما الذى أصابها منذ أن علمت أن محسن قد انى بعقد عمل لحسين ، ذلك أن نوعا من القلق قد أصابها ، وكلما عادت الى البيت سألت الخادمة ان كانت مكالمة قد جاءتها من السفارة واذا ذهبت الى العيادة سألت نفس السؤال ، وفى المستشفى تنازلت على غير عادتها ورجت عامل السويتش أن يهتم بهذه المكالمة المنتظرة وليت الامر انتهى عند هذا الحد ، بل لقد عافت نفسها الدكتور أسامة ، فوقع هذا صريع قلق بالغ ، وزاغت عيناه ، وراح يرقب زوجته بمزيد من الجزع ، وفاض به الكيل ذات مساء فاشتكى لكريمة الممرضة ..

أسبوع هو الذى مر ولكنه كان مثل قرون من الضيق والخوف والعذاب والتمزق ، ذلك ان حسين [illegible]يك قد وقع العقد بعد ، بل انه لم يلتق بشقيقه محسن ، ولقد ظل يسال عنه فى اليوم عدة مرات دون جدوى ، وعندما اراد ان يكف عن السؤال الحت عليه سميرة الا يكف ، ثم انفجر في اليوم الخامس واعلن لها ان كرامته لا تقبل مثل هذا الالحاح والمطاردة حتى ولو كانا لشقيقه ، ثم أصيب باكتئاب بالغ واصبح لا يعرف سوى السهوم والتدخين ، وعندما سالته سميرة ذات ليلة اقتربت منه فيها ، داعبت شعره ، أشعلت له سيجارة ، التصقت به وهمست متسائلة عما أصابه ، قال فى اقتضاب بالغ ، انه لا يريد أن يهاجر ..

اسبوع هو الذى مر ولكنه كان مثل سنوات من الجحيم ، فلأول مرة منذ ان عرفت محسنة للحياة معنى وطعما ، تشعر بما شعرت به فى تلك الايام ، ذلك انها عندما قالت ماقالته لبسيونى ، رآته أمامها يرتج ، من قمة راسه الى اخمص قدميه ، ابيضت شفتاه ثم تحول لونهما الى الزرقة ، وعندما استدار بسيونى مغادرا الصومعه ، كانت محسنة تشعر وكان سحابة شديدة البرودة قد دثرتها .. وعندما استدارت نحو كوب الشاى وامسكت به اكتشفت ان اصابعها تكاد تتجمد ، ولقد اختفى بسيونى من امامها فعلا ، فى اليوم التالى انتظرته طوال اليوم ولم تغادر المعمل ، لكنه لم يات ، ومر يوم ويومان حتى جاءتها فريدة زميلتها وصديقتها اللدودة ، ضحكت وثرثرت وشربت الشاى وكانت محسنة تعلم يقينا انها سوف تسالها عما حدث بينها وبين بسيونى ، وعندما حدث هذا قالت ان شيئا لم يحدث على الاطلاق ، ثم ذهبت فى اليوم الخامس اليه ، كانت ليلة ليلاء تلك التى مرت بها لم تعرف فيها للنوم طعما ، سؤال واحد ظل يلح عليها : لم قالت ماقالت ؟! .. ولم تجد الجواب ابدا ، وعند الفجر فرت من عينيها دمعتان وكانت تهمس باسم بسيونى فى وله ... وفى الصباح لم تستطع المقاومة فذهبت اليه ، دخلت المعمل وراته يقف فى اقصاه ، كان منغمسا فى العمل وقد تناثر بعض الزملاء هنا وهناك ، صاح احدهم هاتفا باسمها مرحبا بها ، فهتفت بتحية الصباح وعيناها لاتفارقان بسيونى الذى التفت بسرعة ، ايقنت انه رآها فاطمأنت ، سارت الى زميلها وصافحته ، وقفت تثرثر معه وهى موقنة اشد مايكون اليقين ان بسيونى سوف ياتى ليرحب بها ، كانت فى وقفتها قد اعطته ظهرها ، ظلت فى وقفتها ولم يات بسيونى ، انتظرت وثرثرت وضحكت لكنه لم يات ، وعندما استدارت لتنظر نحوه كان قد اختفى ، كان قد غادر المعمل ..

اسبوع هذا الذى مر ولكن كل ساعة فيه كانت بالنسبة لمراد عاما باكمله ، كان قد انغمس فى عمله الجديد وقد اكتشف ان ما اقدم عليه لم يك نزهة ، فى هذا الاسبوع ذاع صيته بين زبائن الورش المجاورة، ذلك انه رفض ان يبالغ فى الاجر ووصل به الامر ان علق لوحة فيها اسعار التصليح ، حذره الاسطى امام من مغبة هذا ولكنه اثبت لامام ان دخل الورشة قد زاد ، وان البقشيش قد تضاعف .. كما اكتشف

مراد ان الميكانيكا ليست فهلوة ، وان الهواية لا تكفى ، اكتشف فى تلك الكتب التى جاءه بها فهيم ان هناك بحرا من المعلومات ، واحس احساسا غامضا ، ان كل سيارة كائن حى ، ان حركة الوقود والاشتعال والنظام والتقسيم والاسلاك كانت تمده بكم هائل من المعرفة ، وذات مساء دعا الاسطى امام على العشاء ، وذهبا الى حى الحسين واكلا كبابا وكفتة وشربا شايا واحس ليلتها بسعادة بالغة عندما كان يودع الاسطى امام ، فاذا بهذا يندفع ليضمه ويحتضنه ويقبله من وجنتيه ويقول له انه يحبه كأخ .. كان مراد سعيدا كل السعادة ، لكن شيئا ظل هناك ، فى اعماق نفسه ، فى مكان خفى مهجور ، شيئا من الاسى والشوق كان يطوف بنفسه اذا ماتذكر سهام عمر ، وكان فى بعض الاحيان يتذكر ثريا ايضا ، لكن الذى امضه واتعبه وحيره انها بدت له ، رغم قصر المدة ، مجرد شبح مر بحياته ، وكان يتساءل ان كان ماكان بينه وبينها حبا ؟! .. وان لم يكن فما هو الحب اذن ، وكيف يثق فى قلبه مرة اخرى ؟! ..

وعندما صدر العدد التالى من مجلة أضواء سارع فاشتراه ، بل انه وصى بائع الجرائد ان يضعه من تحت الباب مع الاهرام والاخبار ، وعندما تصفح العدد لم يجد شيئا عنه ، بل .. لم يجد اسم سهام عمر فى العدد كله !

●●●

كان الاجتماع عاديا وصاخبا كعادته ، نفس النغم كان ينساب فى الغرفة ضاربا فى جميع انحاء الدنيا والمجتمع ، وانعقدت سحب الدخان وتبودلت الاتهامات والضحكات والغمزات ، لكن شيئا ماكان ينقص كل هذا ، آلة صاخبة ، افتقدها الجميع ، التفت رئيس التحرير فجأة ، ومن خلف نظارته سدد نظرة نحو سهام وقال :

« مالك ياسهام ؟! »

وكان السؤال امرا بالصمت ، فلقد ساد الغرفة تماما ، اكتشف كل الزملاء والزميلات انه كان يريد ان يوجه لها نفس السؤال ، حاصرتها العيون فواجهتها بنظراتها تلك الصارمة :

« ولا حاجة .. مش عارفه اكتب الموضوع ! »

وتتالت التعليقات على الفور :

« وايه يعنى ؟! »

« سيبى نفسك وانتى تكتبيه ! »

« انسيه واشتغلى فى موضوع تانى حاتلقيه جالك لحد عندك ! »
تشابكت الاصوات وتداخلت ثم توقفت عندما سأل رئيس التحرير:
« مش عارفه تكتبيه ليه ؟! »
لوحت سهام بذراعها فى ضيق وهى تقول :
« مش عارفه . مش عارفه ! »
« تكونيش حبيتى الولد ده ؟! »
وانفجرت فى الغرفة عاصفة من الضحكات ، ضحك الجميع بلا استثناء حتى صنعت الضحكات مع التعليقات المرحة سحابة لفت الجميع ، اثنان فقط لم يضحكا ، سهام عمر ، وفكرى السيد !
كان فكرى هو صديق سهام المقرب ، كان يحبها وكان الجميع يعلمون ذلك ، وكانت ترتاح اليه وكان الجميع يعلمون ذلك ، ولقد انتهى الاجتماع وانفض ، وعندما دخلت سهام الى مكتبها كان فكرى وراءها ، التفتت نحوه وتبادلا النظرات ، امتدت يده فاغلقت الباب ، هتفت :
« فكرى .. ميت مرة اقول لك بلاش تقفل باب المكتب واحنا لوحدينا ! »
قال فكرى فى صوت جاف :
« بس أنا عاوز اقفله النهاردة ياسهام ! »
اندفعت سهام فى عصبية نحو الباب وفتحته قائلة :
« بس انا مش عاوزه ! »
« انتى مش عارفه تكتبى الموضوع صحيح ؟! »
التفتت نحوه بحدة ، سألته :
« قصدك ايه ؟! »
« قصدى مش عارفه تكتبيه والا مش عاوزه ؟! »
همت بالنطق لكنها توقفت ، صوبت اليه نظرتها لكن عيناها لم تقويا على الصمود امام سؤاله ، اطرقت وهى تدور حول المكتب ، جلست على المقعد ، رفعت عينيها تائهتين نحو فكرى ، ساد الصمت طويلا ، ثم قالت بصوت خافت :
« مش عارفه يافكرى ، مش عارفه حاجة ابدا ! »

●●●

قال مراد لفهيم :
« اللى اوله شرط آخره نور يافهيم ! »

رد فهيم :
« أنا عارف ان معاك حق .. بس لازم تراعى جيرانك ! »
« انت عاوزنى اسرق ؟! »
« لا ! »
« دخل الورشة زاد والا قل ؟! »
« ياسيدى ماقلناش حاجة ! »
« من بكره كل عربية تيجى تتصلح تاخد نمره ! »
« دى ورشة يامراد مش بوتيك ! »
« انا طبعت النمر فى مطبعة الحاج احمد ، وبكره حاتوصل ، ولما نعمل قرشين حابقى اعمل نمر نحاس ، وكل عربية تيجى بالميعاد وتتسلم بالميعاد ! »
هتف فهيم :
« يامراد اسمعنى وماتوجعش قلبى ، اصحاب الورش هايجين عليك ! »
« فهيم .. انا عاوز اقابل والدك ! »
« اشمعنى ! »
« علشان بحكم مابينى ومابينك ! »
ولقد ساد بينهما الصمت طوال الطريق ، ولقد كان الحاج عبد المتعال قد انتقل حديثا الى عمارته الجديدة فى الزمالك ، كانوا يسكنون حتى شهور قليلة مضت فى منزلهم بالسيدة زينب ، وكان مراد يعرف والد صديقه معرفة وثيقة ، وكان مضطربا ، وعندما انحرفت بهما السيارة يسارا الى كوبرى ابى العلاء ، قال فهيم محاولا كسر الصمت :
« ايه اخبار الصحفية بتاعتك ! »
« نسيتنى ! »
قالها مراد وقد ضاعت عيناه فى اضواء السيارات التى ازدحم بها الكوبرى !
كما ضاعت عينا مراد فى بيت الحاج عبد المتعال الجديد فى الزمالك قال هامسا لصديقه فهيم ، بعد ان خطا الى الداخل وشمل المكان بنظره :
« ايه التكدس ده يافهيم ؟! »
زمجر فهيم همسا :

« اخرس ! »

كان البيت مزدحما بالاثاث والتحف الى الدرجة التى افقـدت مرادا الرغبة فى تأمله ، جاء الحاج من الداخل ، وكان يرتدى بدلا من الجلباب البلدى بذلة فاخرة .. استمع الى مراد فى صبر باسما ، سأله عن دراسته ، فقال مراد :

« ماتخافش على ياعمي ، أنا حاذاكر وحادخل الامتحان وحاكمل !»

« قول ان شاء الله ! »

« ان شاء الله ! »

ولسبب ما احس مراد ان الحاج رغم استماعه له بصبر ، كان يبدو متأففا .. وعندما انتهى من حديثه ، هم فهيم يطرح وجهة نظره ، فقال له الحاج فى ازدراء لم يحاول ان يخفيه :

« انت فاضي للورشة دي ؟! »

كان واضحا ان الورشة لا تمثل شيئا بالنسبة لامال الحاج فى مشروع ولده فهيم ، ولقد غمغم فهيم ببضع كلمات لكن الحاج لم يمهله ، قال :

« مادمت اديتهاله ، سيبه يتصرف وحاسبه فى آخر كل اسبوع!»

وهكذا حسمت المسألة !

●●●

هتف حسين فى وجه سميرة :

« انت عاوزانى اكذب عليكى ؟! »

« لا ! »

« انا مش عاوز اهاجر ! »

« ليه ؟ ! »

« خايف ! »

« من ايه . هو انت اقل من .. .. »

قاطعها فى حدة :

« لا مش اقل . بس مش عاوز ! »

« واذا أخوك اتصل بيك ؟! »

قبل أن يرد حسين ، دق جرس التليفون ، رفع السماعة بسرعة وهتف فى حنق :

« ايوه مين ؟! »

جاءه الصوت من الطرف الاخر :

« أنا محسن ياحسين ، انا آسف جدا علشان التأخير ده ! »

كان صوت محسن واثقا كل الثقة ، بسيطا كل البساطة ، ووجد حسين نفسه يقول :

« لا ابدا ولا حاجة ! » .

« انت فاضي الليلة ؟! »

« تحت أمرك ! »

« يبقى اشوفك الساعة تسعة ، ونتعشى سوا ! »

« وهو كذلك ! »

« وطبعا سميرة لازم تيجى ! »

« قوى قوى ! »

« مع السلامة ! »

وضع حسين السماعة فى بطء ، واجه نظرات سميرة ، لكنه كان تائها !!

●●●

كانت محسنة قد ذبلت تماما . سيطر عليها الاكتئاب والحزن وترهلت خطوتها الثابتة ، وعندما رفعت عينيها ذات صباح وكانت تجلس خلف مكتبها فى الصومعة ، كان بسيونى يقف هناك ، لم تشعر بشيء ، لا فرح ولا حزن ولا سعادة ولا شقاء ، لاشيء بالمرة .. كان الالم قد دثرها بعباءة حجبت عنها القدرة على الاحساس . قال بسيونى :

« صباح الخير يامحسنة ! »

« صباح الخير يابسيونى ! »

« ممكن اقعد ؟! »

« اتفضل ! »

ساد الصمت لبرهة ، واشعل بسيونى سيجارة ، سألته :

« انت بتدخن دلوقت ؟! »

« التدخين بيريحنى ! »

« احنا مش اتفقنا ؟! »

« معلش ، بس انا بارتاح لما بادخن ! »

همت بالحديث لكنه قال :

« انا آسف للتصرف اللى انا اتصرفته . بس اللى حصل حصل غصب عنى ! »

« انا مش زعلانه ! »

« انا جاى اعتذر لك .. »

« انا مش زعلانه يابسيونى . »

« فيه حاجة عاوز اقولها لك ! »

« اتفضل ! »

دق باصابعه فوق طرف المكتب ، تردد ، نظر اليها ثم خفض بصره ، جاء صوته مترددا خجلا واهنا :

« انا .. انا خطبت بنت عمى ! »

وكأنه سدد الى صدرها طعنه فلقد شهقت .. عاد يقول :

« انا آسف يامحسنة بس انا ماحبيتش حد يقول لك قبلى ! »

ارتجفت شفتاها ارتجافا واضحا ، خرجت الكلمة من بينهما ممزقة :

« مبروك ! »

هز راسه فى عصبية ، وتمتم :

« الله يبارك فيكى . عقبالك يامحسنة ! »

ثم نهض واقفا مودعا ، حاولت أن تنهض لكن ساقيها كانتا ترتجفان بعنف ، مد لها يده فسبحت ذراعها فى الهواء ، صافحها فلم تشعر بشىء ، مضى فهتفت بصوت خافت :

« بسيونى .. انا باحبك ! »

لكنه لم يسمع ، كان يوسع الخطى وكأنه يفر من شبح !

●●●

لم يك فى الدنيا من هو أسعد حالا من سميرة فى تلك الليلة ، ماكاد حسين ينبئها بالخبر حتى هرولت الى الكوافير وعادت وتزينت وارتدت فستانها الرائع وبدت وكأنها أميرة .. وانفرج الكرب عن صدر حسين وتنفس بيسر وسهولة وغسل أسنانه بالفرشاة وحلق ذقنه واستحم واختار قميصا لم يرتده سوى مرة ، وارتدى بذلته السوداء الفاخرة .. وعندما كان الاثنان يخطران فوق أرض الفندق فتغوص اقدامهما فى السجاد الفاخر ، كانت الدنيا تبدو لكليهما

بالالوان الطبيعية .. فى آخر المكان كان محسن هناك ، أنيقا باسما واثقا ، بجواره كانت تجلس سيدة فى بهاء ممثلات السينما ، هتفت سميرة هامسة :

« هى دى ماجدة ؟! »

« أيوه ! »

قالها حسين وكانا قد وصلا الآن الى المائدة ، وكان محسن ينهض مستقبلا زوجة شقيقه بترحاب وحفاوة بالغين ، قدم لها المقعد بعد أن قدم لها ماجدة .. ضحك حسين وهو يصافح ماجدة قائلا لشقيقه :

« يعنى ايه فاكرها يامحسن .. هو فيه حد من شبان الحلمية ينسى ماجدة حسن ؟! »

ضحكت ماجده وخاطبت سميرة :

« خلى بالك يامدام ، جوزك بيعرف يغازل ! »

وضحك الجميع ، كما ضحكت سميرة ، لكن ثمة شيئا كان يشغل بالها بعنف بالغ .. ذلك انها بحثت بعينيها ، وفى سرعة فائقة ودقة شديدة ، عن حقيبة الاوراق الفاخرة ، الحقيبة التى تضم العقد ، فلم تجدها !

● الصورة الثانية عشرة ●

عادت سميرة الى البيت فى تلك الليلة طائرة فوق سحابة من سعادة طالما حلمت بها وتمنتها .. كان محسن يتصرف وكأنه واحد من ملوك المال ، هؤلاء الذين تقرأ عنهم فى الصحف وتشاهد صورهم فى المحلات ، وعندما جلست ، وكان عليها ان تطلب شرابا ، لم تدر ماذا تطلب ، ورمقتها ماجدة حسن بنظرة حانية ومالت عليها قائلة :

« اعملى زيى واطلبى شيرى ! »

استخفها الطرب وطلبت شيرى وهى لا تدرى ماهو هذا الشيرى .. وسرى الحديث مسرى التيار الكهربى فى أوصالها ،كان كل شىء مثل حلم لا علاقة له بالواقع ، شربوا وأكلوا وتحدثوا وضحكوا ، ثم انتقلوا الى الدور الثانى عشر حيث ذلك الملهى الاسطورى فى جماله ، وحيث النيل كان يبدو لها من علٍ وكأنه اسطورة من أساطير الزمان .. وعندما انفلت محسن وماجدة الى حلبة الرقص واصبحت مع حسين وجها لوجه ، التفتت نحوه وكانت عيناه حمراوين ، همست :

« شايف الفلوس بتعمل ايه ياحسين ؟! »

ابتسم حسين فى خجل وكأنه يخوض معركة وقال :

« ترقصى ؟! »

« على ايه ! »

لم يرد حسين ، كان يبدو فى تلك اللحظات منفصلا عن ذاته ، بحثت عنه سميرة دون جدوى ، نهض فنهضت ، صحبها الى حلبة الرقص ، وعندما احتواها بين ذراعيه احست وكأن ذراعيه قد قدا من حديد ثقيل ... همست فى شفتيه :

« مالك ياحسين ؟! »

« ولا حاجة ! »

« انت مش مبسوط ؟! »

« معقول مانبسطش فى ليلة زى دى ؟! »

قال هذا و[illegible]ـسمها اليه فى عنف كأنما يريد أن يمنعها من الحديث ، طاف بها المكان وكانت عيناها هناك ، عند محسن وماجدة اللذين كانا وكأنهما غابا عن الوجود ، وقد ضم كل منهما الآخر الى ذاته ، وراحا يخطوان فى سلاسة من يخطو فوق سحاب ، لا يكفان عن الضحك أو الحديث الهامس !

كان العشاء فاخرا باهرا ، وعندما انزلقت تلك العربة الصغيرة بما فوقها من نيران هادئة وأوان لامعة مقتربة من مائدتهم ، احست سميرة بالجوع يسيطر عليها سيطرة كاملة .. اكلت ، وضحكت ، واحست أنها تحب ماجدة حسن هذه حبا بالغا ، ذلك أن ماجده بدت لها وكأنها قد تجردت من الدنيا ، من كل شىء حتى ذاتها ، كانت ماجدة سعيدة ، وكانت تغازل محسنا مثلما كان محسن يغازلها .. اما حسين ، فلقد كان يضحك مثل آلة تصدر اصواتا بلا حياة ، ويأكل وكأنه يبتلع احجارا ... و .. و ..

ولقد انتهت الليلة وقد غزا الدنيا ضوء النهار .. وعندما اغلق الباب عليها مع حسين ، التفتت نحوه متسائلة ، لكن هذا دلف الى غرفة النوم وكأنه يفر منها ، ولقد تبعته سميرة وهى تتميز غيظا ، كان حسين هناك ، يخلع ملابسه ويدس نفسه تحت الاغطية ، ويدفن رأسه فى الوسادة ..

ولم تنم سميرة .. غادرت الغرفة وصنعت فنجانا من القهوة ، واشعلت سيجارة ، وراحت ـ بملابس السهرة ـ تدخن وتحتسى القهوة فى بطء .. ولقد كان ذهنها مشغولا وهى تفكر فى كل الاشياء التى حدثت فى تلك الليلة ، كانت تفكر فى محسن ، فى الثراء ، فى المال ، فى ماجدة حسن ، فى زوجها ، فى النادى الليلى فى ... فى ... فى كل شىء .. غير أنها لم تلحظ شيئا واحدا ، شيئا غريبا حقا ، لو انتبهت اليه ، لكانت أول المدهوشين، فلقد كانت ، فى جلستها تلك ، فى السيجارة بين اصابعها ، فى فنجان القهوة أمامها ، فى طريقة تدخينها .. تقلد ماجدة حسن !

●●●

فتحت الست بهية باب الغرفة فى هدوء ، ودلفت الى الداخل .

كانت محسنة مكومة فوق الفراش وقد انتفخت عيناها واحمرتا ..

كان هذا هو اليوم الثالث ، وكانت محسنة قد بلغت أقصى درجات الانهيار ... وعبثا حاولت الام ان تعرف من ابنتها سر هذا البكاء دون جدوى ، كانت محسنة مصممة على الصمت

« اجيب لك تاكلى يامحسنه ؟! »
« ماليش نفس ياماما ! »
« وبعدين معاكى يابنتى فى اللى انتى فيه ده ؟! »
« انا كويسه ياماما ! »
هتفت الام فى جزع بالغ :
« هو ايه اللى كويس ، انا حاروح انده لك ابوكى يشوف له صرفه معاكى ! »
« ماما ! »
« يا بنتى انا امك . قولى لى فيه ايه ؟! »
« قلت لك ولا حاجه ، بكره ابقى كويسة ! »
وغادرت الام الغرفة ، وتركت محسنة وحدها .. ولو انها عرفت ما الذى كان يدور فى رأس ابنتها تلك التى لم تعرف الضعف يوما ، لاصابها الفزع .. كانت محسنة — الآن — قد استقر رأيها على شيء بالغ الخطورة .. كانت قد قررت الانتحار !

●●●

نظر الدكتور اسامه الى كريمة الممرضة وقد انتابه شعور غامض بالراحة ، همس :
« فيه حد بره ياكريمه ؟! »
« لا يادكتور ! »
« الدكتورة خلصت ؟! »
« لسه .. عندها اتنين ! »
كانت الساعة الآن قد شارفت على التاسعة ، وكان عليه ان يظل جالسا وحده حتى تنتهى سعاد من عملها .. وكان صدره ضيقا بكل شيء ، كان يتوق حبا وشوقا ، غير أن سعاد كانت تبدو له بعيدة .. بعيدة مثل نجوم السماء ...
« أعمل لك فنجان قهوة يادكتور ؟! »
كان صوت كريمة فيه بحة غريبة كانت تنفذ الى عظامه عندما يكون فى مثل هذه الحالة التى يمر بها هذه الايام . رفع عينيه اليها وابتسم .
« معلش .. اصبر .. كل عقدة ولها الف حلال ! »
قال دون تردد :
« انا تعبت بقى ياكريمة ! »
« ماهو أنت لازم تتعب ! »

نظر اليها فى دهشة غير فاهم لما قالت ، كانت تبتسم ، ردت على نظرته المتسائلة :
« انا حاعمل لك فنجان قهوة ! »
ثم انفلتت مغادرة الغرفة ، وكانت عيناه تحتويان جسدها احتواء ! ..

●●●

ولما كانت الليلة التاسعة ، دخل فكرى السيد مكتب سهام عمر فى المجلة وكان بادى الاكتئاب .. كانت سهام تجلس خلف المكتب ساهمة ، فى يدها قلم وامامها اوراق بيضاء ، رفعت اليه عينيها فجلس امامها متسائلا :
« وبعدين معاكى ياسهام ؟! »
« خير يافكرى ! »
« مش حاشوفك والا ايه ؟! »
« ما انت شايفنى آهو ! »
« لسه برضه مش عارفه تكتبى الموضوع ؟! »
« لا . لسه ! »
« طب ماتشتغلى فى حاجه تانيه ! »
« مش عارفه ! »
« طب اقعدى معاه تانى يمكن .. .. »
قاطعته فى حدة لا مبرر لها :
« مش عاوزة ! »
« وآخرتها ؟! »
« ولا حاجة ، ماتشغلش نفسك بى ! »
هوت جملتها فى صمت الغرفة مثل صفعة .. هم بالرد لكنه توقف ، نظر اليها وكانت نظرته غاضبة :
« انتى عاوزه كده ؟! »
احست سهام بالحرج ، قالت :
« دلوقتى على الاقل ! »
تحداها وقد احس بكرامته قد جرحت :
« وليه مايكونش على طول ؟! »
« انت حر ! »
هب واقفا ، فظلت فى مكانها دون حركة ، غادر الغرفة ، فاغرورقت عيناها بالدموع !

●●●

قالت الام وهى تضع طعام العشاء أمام ولدها :

« مش تشوف اختك يامراد ؟! »

« شفتها ! »

« طب مش تشوف مالها ؟! »

« شفت ! »

« ماتقول لى مالها يابنى ! ؟ »

« وده حايفيد بايه ؟ »

« هو مفيش حد فيكم يعرف يريح ابدا ! »

نظر مراد نحو امه بحنان وقال :

« ماما .. هو ابيه محسن فين ، محدش عاد بيسمع عنه حاجه ! »

« ماهو ده محسن يامراد .. طول عمره كده ! »

« يعنى اليومين اللى قاعدهم فى مصر ، مش كان الواحد يعرف يشوفه كويس ! »

هتف الاب من الداخل وكان يستمع الى الحديث :

« يعنى هو حد كان بيشوفك يا أسطى ! »

ضحك مراد مازحا :

« طبعا انت فرحان انك مابقتش بتدفع الاتنين جنيه المصروف ! »

« خدهم وذاكر ! »

« على فكرة ، انا مش حاعيش عالة عليك بعد كده ! »

« حاتدفع كام ؟! »

« زى محسنة بالضبط ! »

هتفت الام وكأنها تذكرت شيئا :

« على فكرة يامراد .. فيه واحدة سألت عليك امبارح ! »

« اسمها أيه ؟! »

« سوسن ! »

« انا ماعرفش حد اسمه سوسن ! »

« انا عارفه ، آهى قالت لى قولى له سوسن الصحفية ! »

هتف مراد فى فرح طاغ :

« قصدك سهام .. سهام عمر ! »

« أيوه سهام ! »

نهض مراد مغادرا المائدة فى قلق :

« قالت لك ايه . واتكلمت امتى . وماقلتليش ليه ؟! »

التفت الاب نحوه قائلا :

« ايه الحكاية ؟ »

« دى بتكتب عنى موضوع لمجلتها ! »

قال هذا وهو يحمل التليفون مهرولا نحو غرفته .. كان يحفظ رقم تليفونها عن ظهر قلب ، رفع السماعة وانتظر الحرارة فى قلق ، دق التليفون مرات وهو يرتجف ، دهش لهذه اللهفة التى اجتاحته اجتياحا ، تساءل بينه وبين نفسه ان كان قد أحب ثريا بالفعل ، وتساءل بينه وبين نفسه ان كان يحب سهام عمر ، وجاءت الحرارة ، فادار القرص :

« آلو .. مدموازيل سهام موجودة ؟! »

جاءه الصوت عبر الاسلاك من الطرف الاخر :

« أيوه يابنى .. بس نايمه ، تقول لها مين ؟! »

اصابته خيبة امل بالغة ، هتف :

« انا .. انا مراد ! »

« حاضر ، لما تصحى تقول لها ! »

زادت خيبة امله ، فلقد بدا فى صوت الام انها لا تعرفه ، لم تسمع عنه ، انه .. انه لايمثل بالنسبة اليها شيئا على الاطلاق .. وكان عليه ان يضع السماعة ، لكنه عاد فقال :

« أصل هى طلبتنى امبارح بالليل وانا ماكنتش موجود ، لكن ... ... »

لكن الام قاطعته :

« أصلها كانت سهرانة طول الليل ، مانامتش الا الساعة سبعة ! »

« طيب متشكر ، ممكن حضرتك تبلغيها انى سألت عنها ؟ »

كاد يضع السماعة عندما هتف الصوت من الطرف الآخر :

« استنى يابنى . استنى باين عليها صحيت ! »

●●●

لم تك سهام نائمة ذلك النوم الذى تعودته ، كانت – فى تلك الأيام – تنام نوما متيقظا ... لم تك تنتابها الاحلام ، وانما كانت تنتابها الافكار ... ولقد انكرت تماما كل ماطاف بذهنها وخيالها حيال

مراد طوال تلك الايام التى انقطعت فيها عنه .. وفى تلك الليلة ، عندما عادت الى البيت ، كانت تشعر وكأن جبلا يجثم فوق صدرها ، غادرها فكرى السيد غاضبا ، فجمعت أوراقها وغادرت المجلة ، سارت فى شوارع القاهرة على غير هدى ، وجدت نفسها ، دون أن تقصد بالوعى ، أمام الورشة .. توقفت فلمحت «مراد» عند باب الورشة وقد اتسخت يداه وكان يتحدث مع احد الزبائن ، حانت منه نظرة نحوها فارتجفت ، رآها ، أم لم يرها لم يك هذا يعنيها ، عادت تنطلق بالسيارة من جديد ، انتهى بها المطاف الى البيت ، دلفت الى غرفتها واخرجت أوراقها ووضعتها فوق المكتب الصغير الذى لازمها منذ أن كانت طالبة بالثانوى .. نظرت فى الساعة وكانت قد تجاوزت العاشرة بدقائق ، حملت التليفون وكانت مقاومتها تقل دقيقة بعد اخرى ، ادارت القرص وسألت عنه ، فجاءها صوت امه تعلن لها انه لم يعد بعد ، تركت اسمها ووضعت السماعة وجلست تنتظر ، انتصف الليل دون أن يدق جرس التليفون ، امسكت بالقلم وراحت تكتب كلمات بلا معنى ، هكذا يأتيها الامر فى البداية ، ثم انها فجأة ، استغرقت تماما ، انسابت الكلمات من القلم تملأ الاوراق ، راحت تكتب وتكتب ، احست بالحمل الثقيل ينزاح من فوق صدرها ، اذن الفجر ، واشرقت الشمس ، وفتح الباب ودخلت أمها تحمل لها كوب الشاى ..

« انتى لسه بهدومك ياسهام ؟ ! »

ابتسمت سهام وكانت قد انتهت من كتابة الموضوع .

« الشاى آهو ! »

تمطت سهام فى راحة بالغة ، قالت وهى تتثاءب :

« بلاش الشاى ياماما ، اشربيه أنتى علشان انا عاوزه أنام ! »

وعندما دق جرس التليفون ، جاءها الصوت مثل حلم ، غير انها ، وهى بين اليقظة والنوم ، تذكرت مرادا ، هبت من الفراش ، غادرت الغرفة وامها تنهى المكالمة :

« مين ياماما ! »

« واحد اسمه مراد يابنتى ! »

●●●

جاءها صوته عبر الاسلاك :

« صباح الخير ياسهام ! »

« ازيك ياد انت ! »

« انتى من اللى بينامو للضهر ؟! »

« وحشتنى قوى يامضروب ! »

جاءها الرد صمتا طال لثوان ، هتفت :

« آلو ! »

« معقولة ؟! »

« ليه لا .. هو انا ماوحشتكش ؟! »

« معقولة ؟! »

« عاوزه اشوفك ! »

« ياريت ! »

وعندما وضع كل منهما السماعة ، كانا مثل طائرين يحلقان فى اجواز الفضاء .

نظرت بهية هانم الى ولدها فانكرته .. كان مراد قد تحـول في لحظة ، لم تشهدها ، الى انسان آخر تماما .. كان سعيدا ، هكذا تنطق كل ملامحه ، ارتدى ملابسه على عجل ورتب شعره واندفع يعبر الصالة الى الباب عندما صاحت فيه امه .

« رايح الورشة ؟! »

« لا ! »

« مش حاتشوف اختك يامراد ؟! »

هم مراد بان يفتح الباب لكنه توقف . استدار نحو امه وكـانت عيناه تلمعان ببريق أخاذ ... افتر فمه عن ابتسامة وضاءة ، بدا لها ولدها وكأنه ملاك هبط الى الارض من سماء لا تعرف التعاسة ، جاءها صوته حنونا دقيقا :

« ماتقلقيش على محسنة ياماما ! »

قبل أن ترد .. كان الولد قد فتح الباب واختفى !

●●●

السماء والارض والناس والسيارات وضجيج الصباح الرائق .. نتف السحاب تناثرت في سقف الدنيا فزينتها ، دس سيجارة بين شفتيه ودس يديه في جيبي سرواله وراح يتطلع الى ناصية الشارع في قلق وقدماه لا تستقران .. سؤال واحد كان يلح عليه الحاحا متصلا ... كان سعيدا وكان فرحا وكانت الدماء تزغرد في عروقه ، ولكن : ايعني كل هذا انه يحب سهام عمر ؟! .. واذا كان الامر كذلك فكيف ؟! .. كيف ؟! . كيف حدث هذا ؟!

●●●

عندما اندفع الاتوبيس قاطعا الطريق امام سيارة سهام ، وعندما ضغطت بقدمها فوق الفرامل لم تصرخ ،لم تسب وتلعن ، لم تغضب ، لم تحدث نفسها عن الحضارة والتخلف .. لم يحدث شيء من هذا الذي كان يحدث دائما كلما قادت السيارة في طريق مزدحم .. الذي حدث كان العكس فدهشت .. صرخت عجلات سيارتها وتوقفت ، ومرق الاتوبيس امامها من خلف زجاج السيارة

كالجبل لا يلوى على شيء ، صرخ رجل كان يقف على الطوار محذرا السائق الذي لم يسمع ، وابتسمت سهام وهتفت في رقـة :

« يامجنون ، حاتموتني ! »

ولو أن أحدا في الدنيا قد قال لها ان هذا سوف يحدث لاتهمته بالعبط . فلا الموقف ولا الحادث ولا مطبات الشارع توحي بالرقة والتسامح .. لكنها فعلت هذا ، وتمتمت محدثة نفسها بصوت عال : « ياترى مين اللي مجنون فينا ؟! » .. وظلت مبتسمة ،وتمايلت الافكار في راسها نشوى ، فهتفت في خوف لذيذ :

« ايه اللي بيحصل ده يابت ياسهام ؟! »

وتذكرت فكري السيد فهزت كتفيها في لا مبالاة ، وكان عليها ان تنحرف بالسيارة يسارا في شارع جانبي ، ففعلت ، وعندما دلفت السيارة الى الشارع الضيق بدا لها هناك ، كعود اخضر لشجرة لا تعرف الشتاء ، قالت وكأنها تزغرد :

« آهو ... »

●●●

كانت محسنة تجلس خلف مكتبها في الصومعة عندما فتح باب المعمل واندفعت الى الداخل خطوات عرفت فيها محسنة خطوات فريدة ... دق قلبها في عنف وعضت شفتها فلقد اجتاحتها برودة ارتجفت لها ركبتاها . كانت تعرف لم جاءت فريدة ، كانت تعرف وقع الخبر على كل من في المركز ، اقتحمت فريدة صومعة محسنة كالاعصار ، كانت تلهث :

« صباح الخير يامحسنة ! »

ابتسمت محسنة ، ارادت أن تبتسم وكان لابد لها أن تبتسم :

« اهلا فري ، انتي فين ياوحشة ! »

ورغم ان محسنة قد عملت حساب هذه اللحظة بالذات ، رغم انها فكرت فيها كثيرا ، رغم انها انتظرتها ورتبت ما ستقوله ، الا ان كل شيء ضاع ، جرفه طوفان المشاعر التي راحت تتلاطم في صدرها، لقد خذلها بسيوني خذلانا رهيبا ، فلم فعل ذلك ؟ ... لم ؟!

« صحيح الخبر اللي انا سمعته ده يامحسنة ؟! »

كانت فريدة قلقة فعلا ، كان وجهها شاحبا .

« خبر ايه يافريدة ؟! »

« بسيوني خطب بنت عمه صحيح ؟! »

« أيوه ! »
« ايه ده ؟! »
« ودى فيها ايه ؟! »
« طب ازاى ؟! »
هكذا هتفت فريدة وهى تنتفض فى مكانها .
« اقعدى الاول ، واقفه ليه ؟! »
صوبت فريدة اصبعها نحو صدر محسنة ، قالت فى انفعال صارم :
« اسمعى يابت انتى ، ماتحطيش مناخيرك فى السما وكلمينى عدل ، صحيح أنا وانتى دايما بنتناقر لكن ده مش مهم ! »
كان صدر فريدة يعلو ويهبط فى انفعال حقيقى ، مالت فجاة الى الامام وراحت تسدد لمحسنة نظرات غاضبة ، عادت تقول :
« أيوه كل ده شىء مهم ، المهم انى اعرف ازاى الندل ده عمل كده ؟! »
كانت هذه اللحظة هى أغرب اللحظات التى مرت بها محسنة ، احست فجاة وكأن شيئا قد انفجر فى صدرها ، كابوس هو ام جبل كان يجثم على انفاسها ؟ .. سيان ، لكن الذى حدث انها تنفست لأول مرة منذ ايام طويلة ، تنفست حقا ، استشعرت طراوة الهواء فى رئتيها . وعندما تحدثت لم تحاول أن تخفى تلك الرعشة التى اجتاحت صوتها :
« بسيونى مش ندل يافريدة ... اقعدى وانا اقول لك على كل حاجة ! »
بدت فريدة فى حالة ذهول وهى تجلس فى بطء شديد . نظرت الى محسنة نظرة ملؤها الشك ، قالت محذرة :
« انتى عاوزه تفهمينى انك كنتى تعرفى انه حايخطب بنت عمه ؟! »
« أنا ماقلتش كده ! »
« أمال مش ندل ازاى بقى ؟! »

●●●

تلاعبت ماجده حسن بسيجارتها وراحت ترقب دخانها المتصاعد ، كانت الشمس تنفذ اليها من خلف الزجاج فتشيع فى جسدها

دفئا لذيذا ، رفعت عينيها الى محسن وكان يجلس مسترخيا فى هدوء ...
« ميعاد اللجنة الساعة كام ؟! »
غمغم محسن :
« الساعة واحده ! »
« وحاتفضل قاعد بالشكل ده ؟! »
كان النيل ينساب لامعا تحت اشعة الشمس ، وأرسل محسن بصره الى الشاطىء الآخر حيث الجزيرة ، الاشجار الخضراء والكورنيش الهادىء ، وزجاجات المياه الفازية ، والكازينو الصغير الذى تعودا الجلوس فيه وكان هذا منذ عشر سنوات ، نظر اليها باسما وهم بالنطق عندما قالت :
« محسن ! »
كان صوتها مرتجفا ، فاعتدل فى جلسته فسحقت السيجارة سحقا عصبيا .
« مالك ياماجده ؟ »
« أنا مش حاقدر اشوفك بعد النهاردة ! »
بدا الغضب على ملامحه هادئا . زم شفتيه وكأنه يمنع نفسه من الكلام . عادت ماجدة فرفعت اليه عينيها متوسلة . جاء صوتها واهنا :
« من فضلك يامحسن ساعدنى ، مش لازم اشوفك تانى ! »
ظل محسن على صمته ، وانبثقت من عينيه نظرة شديدة الحدة ، جمعت ماجدة أشياءها ودستها فى حقيبة يدها استعدادا للانصراف ، ظل محسن على سكونه تحول هذا السكون الى جمود كامل ، كان وكأنه قد سخط تمثالا للصمت ، حملت ماجدة حقيبتها على كتفها وسددت اليه نظرة ثابتة :
« انا فكرت كتير ! »
توقفت ، لكنه ظل جامدا :
« مفيش قدامنا حل تانى ! »
كأنه لا يسمع ولا يرى ولا يحس ولا يشعر ولا يفكر ، تحول محسن الى شىء ، شىء غريب هو ، انسان فقد الحياة لكنه يتنفس كآلة صماء .

ثم قال فى صوت خافت :
« انا لما فكرت انى اشتغل فى الورشة . مكانش فى بالى ابدا انى ما أكملش دراستى .. لكن اللى خلانى أكره كل حاجة فى الدنيا .. ثريا ! » .
« اللى كنت بتحبها ؟! »
« اللى اتجوزت وسافرت كندا علشان تقضى شهر العسل ! »
« انتوا حبيتوا بعض كام سنة ؟ »
« دى حكاية غريبة .. خليها لبعدين ! »
« اشمعنى ؟ »
« علشان ابقى ضامن انى حاشوفك تانى ، وعلشان الموضوع ننتشر الاسبوع الجاى ! »
وابتسمت سهام ، فتعانقت ابتسامتها مع ابتسامته !

●●●

قالت فريدة وهى تحملق فى محسنة :
« برضه هو غلطان ! »
همست محسنة فى أسى واضح :
« كفاية كلام فى الموضوع ده يافريدة . انا تعبت ! »
نهضت فريدة وهى تقول :
« على العموم انا وعدتك انى ماتكلمش مع حد فى الموضوع ده ، وانا حانفذ وعدى . بس لازم تبقى عارفه ان رايى فى بسيونى انه ندل ! » .
وانصرفت فريدة .
وانفردت محسنة بنفسها .. كانت تفكر بعمق ، لم تك تفكر فى بسيونى على الاطلاق ، ولكن ماكان يشغل بالها حقا ، انها استراحت فعلا عندما تحدثت مع فريدة . عندما اعترفت انها شريكة فيما حدث ، وتساءلت فى دهشة بالغة : هل كانت حقا تحب بسيونى ؟! ام انها نطقت بالحقيقة دون أن تقصد عندما سالها هذا السؤال فأجابت بالنفى ؟!
مدت يدها الى درج المكتب واخرجت صندوقا صغيرا من البلاستيك لم تفتحه ، وانما فقط راحت تتلاعب به ، ففى هذا الصندوق كانت تكمن عشر حبوب تكفى لقتل فيل !

●●●

قالت كريمة :
« لو كنت بتحبها يبقى لازم تستحمل ! »
لوح أسامة بذراعه فى الهواء قائلا :
« أمال انا باعمل ايه دلوقت ، وانا بقى لى أكثر من شهر مش عارف ... ... »
وصمت ، لم يك من المعقول أن يذكر ماكان يود ان يذكره ، غير ان كريمة فهمت فابتسمت ، وجاء صوتها خافتا متحشرجا :
« الست غير الراجل يادكتور ! »
ابدى أسامة امتعاضة وتساءل :
« فيه لسه حد بره ؟! »
« عبد الشكور بيه بتاع الكلية ! »
« طيب دخليه ! »
ولم يستطع أسامة ، ابدا لم يستطع أن يمنع عينيه عن جسد كريمة وهى تنصرف !

●●●

اخرج محسن دوسيها أنيقا وراح يتصفح أوراقه ، ثم انتزع منه ورقة قدمها لحسين :
« العقد آهو .. اقراه كويس قبل ماتمضى عليه ! »
هتف حسين :
« انت مش قلت لى على كل حاجة ؟! »
« معلش .. لازم تقراه ! »
« حاقرا وراك يامحسن .. ادينى قلم علشان أمضى لك ... انا موافق ! »
« لازم تقراه كويس ياحسين ، ولازم تدرسه .. لانك قبل ماتمضى على العقد ده ، لازم تمضى على عقد تانى ! »
توقف حسين برهة ، وارسل بصره نحو اخيه ، كان وجه محسن قد تحول فجأة الى صخر .. تساءل حسين غير فاهم :
« عقد تانى بتاع ايه ؟! »
« عقد بانى مدير أعمالك ، ولى عشرة فى الميه من دخلك لمدة خمس سنين ! » .

راح حسين يقود السيارة وسط زحام الشوارع فى عصبية وقلق ، كان كل شىء يبدو له باهتا بلا معنى ولا طعم ... راحت كلمات محسن تتردد فى راسه بلا توقف ، كان ثائرا ، وكان غاضبا ، كما انه كان حائرا .. وكان العقد الذى انتظره طويلا ، حلم الاحلام وامنية الامانى ، يرقد بجواره على المقعد الامامى للسيارة .

عندما حدث ماحدث ، وعندما قال محسن ان على شقيقه أن يوقع عقدا يلزمه بأن يدفع له عشرة فى المائة من دخله لمدة خمس سنوات ، احس حسين بما يشبه الاغماء الفكرى ، فلقد تاهت منه الافكار والكلمات ، لم يدر مايقول او مايمكن أن يقول ، غير انه ايقن على الفور أن الصدمة كانت عنيفة ، وان محسن قد احس وقعها عليه ، فلقد راح يتحدث ويبرر ويوضح فى جمود وصخرية غريبين .. قال :

« اسمع ياحسين ، حكاية العواطف دى ملهاش دعوة بالشغل .. انت يمكن تلقى هناك اتنين اخوات ، واحد منهم مليونير والتانى شحات ، والاتنين بيفضلوا اخوات برضه ، لكن محدش منهم بيقول للتانى هات من اللى عندك !! »

لحظتها ارتج حسين من أعماقه ، هم بالحديث غاضبا لكن محسن استطرد :

« أنا مش عاوزك تستغرب ، ولا عاوزك تزعل ، انا بنيت نفسى هناك بضوافرى .. انا جعت واتشردت وحفيت وماالقيتش اللى يمد لى ايده ! »

راح حسين ينظر فى عينى اخيه فى فزع ، ثمة شىء غريب كان يطل من هاتين العينين ، كانتا وكأنهما تحولتا الى عينين من زجاج ، ثمة احساس فى صدره يدفعه دفعا الى الرفض ، ثمة سؤال غريب راح يلح عليه الحاحا متصلا ، سؤال لا علاقة له بما كانا فيه الآن ، قال :

« ايه اخبار ماجده يامحسن ؟! »

وانطفأ البريق فى العينين الزجاجيتين .. كانت ايام طويلة قد

مضت منذ أن سهرا معا تلك السهرة التى قلبت حياة زوجته راسا على عقب ، ألاحلام والمال والاضواء والشراب والطعام وتلك الحياة الاسطورية التى أطلت على بيتهما كشيطان لا يعرف الرحمة ...

كانت الشوارع امام عينيه الآن مكدسة بأجساد السيارات اللامعة المتزاحمة ، الضوضاء والابواق والضجيج الرهيب تملأ رأسه بما يشبه الجنون ... واذا كان محسن قد تجاهل سؤال شقيقه عن ماجدة حسن ، فانه قد رفع اصبعه فى وجه أخيه وكأنه يحسم الامر تماما :

« خد العقد معاك البيت ، ادرسه كويس واعرضه على سميرة ، ورد على وقت ماتاخد قرار ! »

ضحك حسين ضحكة قصيرة فاترة ، قال وكأنه يلقى عن نفسه تهمة :

« وسميرة مالها ومال الحاجات دى ؟! »

هز محسن كتفه فى لامبالاة وغمغم :

« لو أخدت رايها مش حاتخسر حاجة ، والا انت ناوى تسيبها هنا ؟! »

وهكذا انتهى كل شىء .. وهكذا دس حسين العقد فى المظروف الانيق ، وهكذا غادر شقيقه الى السيارة ، ثمة احساس غامض ومخيف كان ينتابه بأن محسن يعرف أن سميرة سوف تضغط عليه ، احساس مروع بأن محسن موقن تماما من انه سوف يوافق وسوف يوقع ، وسوف يقبل .. احساس رهيب بانه قد وقع فى مصيدة قدرية ، مصيدة صنع بيديه شباكها لنفسه ... فالى أين ؟ .. الى أين ؟!

●●●

نهضت محسنة من فوق مقعدها وكان صندوق البلاستيك مازال فى يدها ، عشر حبات كانت تعلم علم اليقين انها كافية لان تقتلها فى دقائق ، كانت تعلم تاثيرها ، ذلك الخدر اللذيذ الذى سوف يتسرب اليها ، ثم تلك الغيبوبة وكأنها تسبح فوق سحاب رائع : ثم ... ثم الموت دون ألم !

هكذا اتخذت قرارها بعدما قال لها بسيونى ماقال ، غير أن هذا الذى حدث بينها وبين فريدة كان غريبا ، انفثأ الالم فجأة ، لم يتبدد ، بل خفت وطأته فقط ، وانقشعت عن عينيها تلك

السحابة المروعة السوداء .. حملت صندوق الموت الصغير وسارت حتى الحوض القائم فى ركن الصومعة ، فتحت الصنبور فانسابت منه المياه ، فتحت الصندوق فتدحرجت منه الحبات واحدة اثر الاخرى ... ظلت فى مكانها برهـة ، راحت ترقب الحبات يمينها ، وكان هناك .. هو هو ، بلحمه ودمه وشحمه ، بسيونى عبد البر !

....

....

كانت حبات الموت قد تحولت وسط المياه المتدفقة من الصنبور الى مزيج أبيض اللون راح يتلوى على سطح المياه متخذا له مسارا ثعبانيا نحو البالوعة التى راح يختفى فيها ، دق قلب محسنة حقا لكنها ابتسمت رغما عنها ، هتفت وهى تلقى نظرة أخيرة على المسحوق الذائب :

« أهلا يابسيونى ، تعالى ! »

خطا بسيونى الى الداخل متجها الى المقعد الذى تعود أن يجلس عليه ، اخرج صندوق سجائره ودس سيجارة بين شفتيه واشعلها ثم راح يدخن ، فى شراهة واضحة ، سارت محسنة نحو مقعدها وجلست متجهة اليه بكليتها ، كان بسيونى شاحبا ، وكانت يده ترتجف بالسيجارة المشتعلة ، قالت محسنة فى ود أنكرته على نفسها :

« برضه لسه بتدخن يابسيونى ؟! »

دون أن يرفع اليها عيناه ، قال :

« محسنة ، انا لازم اتكلم معاكى ! »

« وانا تحت امرك ! »

« بخصوص الموضوع اللى حصل ! »

« موضوع خطوبتك ؟! »

« انا لازم اشرح لك الظروف . »

« انت مش ملزم بالشرح ؟! »

« محسنة ، من فضلك ادينى فرصة اقول لك وجهة نظرى ! » .

مالت محسنة نحوه باسمة ، وكانت عيناها تلمعان ببريق غريب قالت :

« بسيونى ، انا نفسى انك تفهم حاجة واحدة بس ، انى مش زعلانة بالمرة ، انا باتمنى لك السعادة حقيقى ، ومن كل قلبى كمان .. ويمكن ، يمكن يكون السبب فى اللى حصل ده . هو الاسلوب اللى تم بيه بس ، انت فاجئتنى يابسيونى ، انا كنت معاك كل يوم ، ومش ممكن الحكاية دى تكون حصلت بين يوم وليلة ، لكن انت ماقلتليش ، وده كان وقعه على وحش قوى .. بس ! »

هتف بسيونى فى حرارة :

« ماهو انتى السبب يامحسنة ! »

« أيوه ... انا السبب فعلا فى انك خطبت .. وانت معاك حق ، وفريدة كانت هنا من شوية ، وانا قلت لها كده ، قلت لها ان معاك حق ! »

بدا بسيونى يقاوم فى ضراوة :

« معقول يا محسنة أقول لك بتحبينى والا لا ... تقولى لا ؟! » .

« لان هى دى الحقيقة ! »

هوت الجملة فوق راس بسيونى كمطرقة لا تعرف الرحمة ، ازداد شحوب وجهه وازداد اضطرابه وشراهته للتدخين ، غير ان هذا لم يدهش محسنة ، الذى ادهشها حقا هو هذه السكينة التى اجتاحتها اجتياحا ... ولكم كانت تود ، فى هذه اللحظة بالذات ، ان تربت على وجه بسيونى وأن تطيب خاطره ... كانت آثار اللطمة التى وجهها اليها قد اختفت تماما ، واصبحت الان ، فى هذه اللحظات بالذات ، ترى الدنيا بمنظار اخر ، منظار غريب ، كأنها ... كأنها .. كأنها استطالت واصبحت ترى كل شىء من عل .. وتساءلت وهى تنظر الى بسيونى فى حنان : هل احبته حقا ذات يوم ؟!

وطوال تلك اللحظات التى مضت ، كان بسيونى يحاول أن يتكلم ولقد وجد صوته اخيرا :

« انا فى الحقيقة كنت .. كنت فاكر حاجة تانية ! »

« وانا كمان ! »

قالتها محسنة فى بساطة شديدة ، حملق فيها بسيونى لا يدرى ماذا يقول ، وضحكت محسنة ضحكة مقتضبة ثم قالت :

« ممكن تعزم على بسيجارة ! »

ولم تك هذه هى السيجارة الاولى التى تدخنها محسنة ، غير ان هذه السيجارة بالذات كان لها طعم خاص .. نفثت الدخان فى الهواء وقالت :

« انا كمان كنت فاكرة انى باحبك ، ولما قلت لا ، ما اعـ ـرفش قلتها ليه وازاى ، ولحد دلوقت انا مااعرفش السبب .. لكن .. لكن .. مش عارفة اقول لك ايه يابسيونى ، بس الحقيـــقةانى اكتشفت أن الحب حاجة تانية غير اللى انا كنت حاسه بيها ! » .

« محسنة ، انا مستعد لفك الخطبة بتاعة بنت عمى دلوقت حالا ! » .

قال هذا فى حرارة وهو يرتجف ... فشعرت محسنة على الفور انه لطمها واهانها .

« بسيونى ، عيب اللى انت بتقوله ده ! »

« اقسم لك ... ... »

قاطعته :

« من غير ماتقسم ، مفيش واحدة ممكن تطمئن لانسان يعمل عملة زى دى . انا آسفه ! »

ونهض بسيونى يجرجر اذيال الخيبة ، وكانت محسنة فى ذروة الغضب والسعادة معا !

●●●

طوى رئيس التحـــرير الورقة الاخيرة وكانت الابتســامة تملأ وجهه .

« ايه رأيك ؟! »

« كويس قوى ياسهام ! »

قفزت سهام فى فرح ، وامتدت يدها تخطف الموضوع من امـام الرجل :

« طب اوديه السكرتارية بقى علشان يلحقوا يوضبوه ! »

ولم يرد رئيس التحرير ، فقط ازدادت ابتسامته اتساعا ، وكانت سهام تخطو نحو باب الغرفة عندما أستوقفها شىء غامض وغريب ، توقفت ، التفتت نحو الرجل الجالس خلف مـكتبه . وحملقت فى عينيه اللتين كانتا تطلان عليهـا من خلف منظاره الطبى ، همســت بصوت جاء مرتجفا رغما عنها :

« بتبص لى كده ليه يا أستاذ ؟! »

وعندما ازدادت ابتسامته اتساعا ، استدارت فى عصبية ، وغادرت الغرفة لا تلوى على شىء .

●●●

وضع الاسطى امام النقود أمام مراد .. ساله هذا دون ان يرفع راسه عن مضخة الزيت التى كان قد انهمك فى اصلاحها :

« ايه دول ؟! »

« تمانية جنيه واربعين قرش ! »

« بتوع ايه دول ؟! »

« البيجو الحمرا ! »

فتح مراد فمه ، لكن امام لاحقه فى سرعة :

« غيرنا البوجيهات والبلاتين وصلحنا التابلوه وحطينا فيه تلات لمبات جديدة و ... »

هتف مراد مقاطعا :

« طيب ، ومالك ملحوق كده ، مالك ؟! »

« مش انا اللى مالى ياسى مراد .. الحاره هايجه علينا ! »

توقف مراد عن العمل ، نظر الى أمام وكان هذا قلقا :

« الحارة مالها ومالنا ؟! »

« ياسى مراد .. العبارة مابقتش صغيرة ! »

« ايه بس اللى حصل ؟! »

« الاسطوات فى الورش اللى حوالينا . »

« مالهم ؟! »

« الا مالهم ... هو ده مش اكل عيشهم ؟! »

« مش فاهم حاجة ؟ »

« حكاية الاسعار اللى احنا بنصلح بيها دى . »

« مالها برضه يااسطى امام ؟! »

« زباينهم سابوهم ! »

« واحنا مالنا ؟ »

« ازاى بقى ، والعربيات بقت واقفة قدام الورشة بالدور ! »

ابتسم مراد فى سعادة ، هاهو ينتصر على امام ، كان دخـــل الورشة قد تضاعف مرات ، وكانت كل سيارة تاخد رقما ، وكان البقشيش ينهال على العمال والصبيان بلا حساب ، كان مـراد سعيدا حقا ، لكنه لم يك يدرى اى كارثة كانت تنتظره .

« اسمع ياامام . احنا بناخد من الزباين أقل من حقنا ؟! »
« مش هى دى العبارة ياسى مراد ! »
« خلاص . سيب اللى يزعل يزعل ! »
« يعنى ايه الكلام ده بقى ؟! »
« يعنى الورش اللى جنبنا مش حاتسكت ، وانا بصراحة كده خايف عليك ! »
هم مراد بالحديث عندما تعالت فى الخارج صيحات وشتائم وامتلأت الحارة بالهرج والمرج ، خطا مراد نحو باب الورشة عندما أمسك امام بذراعه يمنعه من الظهور فى الحارة :
« خليك انت هنا الله لايسيئك ! »
دهش مراد ، غضب ، نظر الى امام نظرة صارمة ، قال :
« سيب أيدى ياامام ! »
اندفع مراد نحو باب الورشة ليرى ماكان يحدث .. غير انه ماكاد يصل الى الحارة ، حتى صرخ أمام من الخلف صرخة مروعـــة ، وانطلقت من امام وجهه تماما ، قذيفة من حديد ارتطمت بزجاج احدى السيارات فحطمته فى دوى هائل !

●●●

رفع أسامة راسه من فوق جهاز الاشعة وكان يمعن النظر فى صدر احد مرضاه ، وكانت سعاد تقتحم عليه الغرفة ... كانت عظيمة ، هائلة ، جميلة ، كانت مثل ملكة تحدث واحـــدا من رعاياها :
« أسامة ! »
« أيوه ياحبيبتى ! »
القت أمامه بمظروف كبير وقالت :
« تاخد الاوراق دى توديها للمستخدمين ، وتاخد طلب الاجازة من الظرف وتروح بنفسك للدكتور عبد العظيم مدير المستشفى ، وماتسيبوش الا لما يمضى عليه ، وبعدها توديه لاحمد افندى بتاع المستخدمين برضه بايدك . واوعى تبعته مع حد ، وخليه يمرره على زملائه ويخلصه وانت واقف .. بعد كده .. »
لاول مرة يقاطع اسامة زوجته :
« ايه الحكاية ياسعاد ؟! »
« الملحق كلمنى من السفارة ! »

« الملحق الثقافى ؟! »
« الطلب وصل والتذاكر جاهزة وانا لازم أسافر فى ظرف ٤٨ ساعة ، تعمل اللى قلت لك عليه ، وتحصلنى على البيت . تقدر تركب العربية مع عادل .. باى باى ! »
قالت سعاد هذا ، واستدارت مبتعدة . اختفت . لـكنها تركت اسامة وكان يرتجف من قمة رأسه حتى أخمص قدميه . كان . كان اسامة غاضبا !
هتفت سهام :
« بلغت البوليس ؟! »
« أبلغ البوليس اقول ايه ؟! »
« تقول لهم على اللى حصل ! »
« مين حايشهد معايا ! »
« مراد .. انت اتجننت . حتة الحديد دى لو جت فى دمـاغك كان زمانك فى خبر كان ! »
« ده صحيح ، بس محدش اتخانق معايا ، محدش داس لى على طرف ! »
أمسكت سهام بيد مراد فى حرارة :
« مراد .. خلى بالك من نفسك ! »
ضحك مراد ضحكة خافتة ، كان خائفا .
« مالك يامراد ؟! »
« خايف ياسهام .. أنا خايف ! »
همت سهام بالحديث لكنها توقفت ، ضغطت يدها على يده فى قوة وعنف ، التفت أصابع مراد ، التى أصبحت خشنة ، على يدها .. جاء صوته متكسرا :
« فيه حاجة عاوز أقولها لك ياسهام ! »
« قول ياحبيبى ! »
هوت الكلمة كقنبلة من العطر المخدر بين الاثنين ، كانا جالسين فى نفس المكان ، فى نفس الكازينو الذى شهد لقاءهما الاول ، قالتها سهام دون ان تقصد ، دون أن تعى ، خرجت الكلمة من فمها بلا وعى .. صمت مراد ، طال صمته ، ارتخت أصابع سهام ، لكن أصابعه ظلت متشبثة بيدها ، أخيرا وجدت صوتها :

« عاوز تقول ايه يامراد ! »

« عاوز أقول اللى انتى قلتيه بالضبط ياسهام ! »

جذبت سهام يدها من يد مراد ، راح صدرها يعلو ويهبط ، وهمس مراد :

« أنا باحبك ياسهام ، ومش عارف ان كان ده حقيقى ولا وهم ! »

غير انهما لم يتحدثا بعد ذلك كثيرا ، تقدم بهما الوقت واوغل الليل فنهضا ، وكان الصمت هو حديثهما الذى ثرثر فيه كل منهما مع نفسه بحديث لا نهاية له !

●●●

عندما دلف مراد الى البيت كان كل شىء ساكنا ، والظلام يغمر غرف البيت جميعا عدا غرفة محسنة ... وقف أمام باب غرفة شقيقته مترددا ، كان راغبا فى الحديث ، وكان راغبا – ايضا – فى الصمت ، لكنه اخيرا دق على الباب ، وفتحه بهدوء .

راى محسنة جالسة فوق الفراش وعلى ركبتيها كتاب ، رفعت اليه عينيها ، راى فيهما بريقا لم يعهده من قبل .. القى عليها تحية المساء فقالت :

« فيه تليفون جالك من ساعة ! »

« مين ؟! »

« ثريا .. وسابت لك النمرة دى ! »

● الصورة الخامسة عشرة ●

جلست سهام الى مكتبها وقد اسندت رأسها الى كفيها وسرحت بعينيها فكأنها راحت فى غيبوبة ، صدر العدد الذى يحوى الموضوع فى اليوم التالى ، كان تأثير ليلة الامس عنيفا ، غادرت مرادا وهى تعجب مما حدث ، ليس لانها قالت له « ياحبيبى » ولا لانه صارحها بحبه ، ولكن لتلك النشوة الغامرة التى اجتاحتها اجتياحا حتى اصبحت كل الاصوات نغما واحدا يسرى فى وجدانها ، وكل الاشكال اجزاء من لوحة رائعة للدنيا ، كان كل شىء فيها وحولها قد تغير ، حتى ... حتى عندما اصبح الصبح وتحدثت الى مراد فى التليفون وشربت الشاى وتناولت الافطار وقرأت الجرائد وذهبت الى المجلة وفتحت العدد الذى كتبت فيه عن مراد وراحت تقرأ ما كتبت ، حتى هذه اللحظة كان كل شىء يبدو بهيجا ذا عطر من نوع خاص ، ولكنها عندما قرأت ماكتبت ، احست وكأنها تصفع نفسها بعنف كى تفيق ... وعندما قرأت السطر الاخير فى الصفحة الرابعة من الموضوع المنشور ، واجهت سؤالا غريبا : وماذا بعد ؟!

فتح باب المكتب ودخل فكرى السيد ، رفعت رأسها وكانت عيناها فوق صفحات المجلة المفتوحة أمامها .. رأت على شفتيه ابتسامة مريرة .. القى تحية الصباح فطلبت اليه أن يجلس .

« مالك ياسهام ؟! »

« زعلانة منك ! »

« انتى اللى زعلانه ؟! »

« بالتأكيد ، لانك صديقى ، ولانى محتاجة لك مش لاقياك ! »

« انتى نسيتى انى باحبك ؟! »

« لا مانسيتش ، بس انا محتاجه لك ! »

« مالك ياسهام ؟! »

« مش عارفه ، يظهر انى باحب الولد ده ! »

« وبعدين ؟! »

نظرت اليه سهام وكانت تعلم يقينا انها صادقة ، احست سريان

الشحوب تحت جلدها ، بردت أطرافها ، أشعلت سيجارة ، تنهدت قالت :
« آهو ده اللى أنا مش عارفاه ! »
صمتت ثم همست حائرة :
« وبعدين يافكرى ؟! »

●●●

صرخ حسين فى وجه زوجته :
« لا . لا . لا لا لا ياسميرة ، مش حامضى العقد ! »
« تبقى عبيط ! »
« بلاش قلة أدب واحترمى نفسك أحسن لك ! »
« حاضر ! »

كانت سميرة هادئة ، كانت باسمة ، بل .. بل ورغم أن حسين كان فى ذروة العصبية ، رغم أنه لم ينم طوال الليل ، رغم الحوار الذى دار والزعيق والحيرة والتبلد ... كانت سميرة تبدو سعيدة أشد ما تكون السعادة .. ولقد كانت المسألة ببساطة هى أن سميرة قالت أن عليهما أن يقبلا الأمر الواقع ، وإذا كان هذا هو نمط الحياة فى المهجر ، فان عليهما ان يتقبلا هذا النمط وأن يتأقلما عليه ، صرخ حسين ؟!
« طب افرضى اننا نجحنا وبقيت باكسب مليون جنيه ، ياخد منى النسبة دى برضه ؟! »
« من حقه ! »
« ده أخويا ياسميرة ، أخويا .. فاهمه ده معناه ايه ؟! »
« معناه انه راجل شريف وبياكل عيش ! »
« ده أخويا ياسميرة ، أخووويا ! »
« وأخوك ماله ومال الشغل . »
« عارفه ده كان بيكلمنى ازاى ؟! »
« بيكلمك ازاى .. زى الناس ! »

و ... و ... وهكذا مضى الليل وحسين يتقلب على جمر من العذاب بلا نهاية ، وهكذا مضى الليل دون أن ينام ، ودون أن تنام سميرة ، ودون ان تكف عن الالحاح عليه بأن يوقع ... ثم .. ثم .. ثم جاء الصباح ، واحس أنه غير قادر على الذهاب الى المصنع ، كان مكدودا متعبا مرهقا ، فكر فى أن يأخذ رأى أصدقائه لكنه

تراجع ، أحس برغبة شديدة فى الاختلاء بنفسه ، لم يك يريد ان يرى أحدا ولا أن يحدث أحدا ، كانت ثورته عارمة وعنيفة حتى لقد تساءل بينه وبين نفسه عما ألم به .. وإذا كان رافضا فليرفض دون غضب أو ثورة أو ضيق ، ولكن ... ولكنه أبدا لم يعرف ماالذى كان يلم به ، كلما تذكر العينين الزجاجيتين اللتين كانتا تنظران اليه من وجه محسن رمضان ، شقيقه الاكبر الذى كان يطلب نسبة من رزقه لخمس سنوات قادمة ، لا لشىء ، الا لانه ساعده فى الحصول على عمل .
« أمال انت فاكر الحكاية لعب زى اللى بيحصل هنا ؟! »
« قصدك ايه ياسميرة ؟! »
« قصدى ان زعلك ده بيخليك عيل صغير ! »
صرخ : « سميرة ! »
ردت : « بكره تعمل اللى بيعمله اخوك ده ، وساعتها حاتعرف ان اللى حصل ده كان حاجة طبيعية ! »

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة صباحا ، وكان الارهاق قد اخذ بحسين كل مأخذ عندما صرخ :
« سميرة ، أنا مش حامضى العقد ده ! »
« اتفلق ! »

قالتها سميرة وهى تندفع فى غضب ـ لأول مرة منذ عاد زوجها من لقائه مع محسن ـ نحو الدولاب لترتدى ملابسها وتغادر البيت لا تلوى على شىء ..

●●●

ابتسمت كريمة الممرضة فى حنان صادق وهى تنظر الى وجه أسامة الحتقن .
« وبعدين يادكتور ؟! »

كانا يقفان ملتصقين وهما يجهزان بعض المعدات الطبية تمهيدا لدخول المريض التالى ، التفت أسامة نحوها فكاد وجهه ان يلتصق بوجهها ، ولم تتحرك كريمة ، لم تتراجع ، فقط .. تهدجت أنفاسها حتى نفحت عنق أسامة بحرارتها ... همس الدكتور فجاء صوته متحشرجا :
« يعنى عاجبك كده ياكريمة ؟! »
« انتوا مش اتفقتوا على كل حاجة ؟! »

« لا ! »
قالها اسامة فى غضب وهو يستدير مبتعدا وقد انتابه نوع من الدوار .
« ما تزعلش نفسك ! »
قالتها كريمة دون أن تتحرك من مكانها . لكن اسامة لم يرد ، جلس فوق مقعده خلف المكتب ، وراح ينقر عليه باصبعه .
« ادخل العيان ؟! »
« دخليه ! »
كان أسامة فى تلك اللحظة بالذات ، قد اتخذ قرارا !

●●●

طوى فهيم صفحات المجلة وحملق فى الهواء ... كان قد انتهى من قراءة ما كتبته سهام عمر عن مراد ، سرت فى وجهه ابتسامة رقيقة وهز راسه فى تعجب ، سمع صوت جرس الباب فقام يتحرك ، مد يده الى التليفون وكان ينوى أن يتحدث الى مراد عندما سمع حفيف خطوات الخادم ...
التفت نحو مدخل الانتريه :
« الاسطى امام بره ياسعادة البيه ! »
نهض فهيم وكأن عقربا قد لدغته :
« الاسطى امام ، وده عاوز ايه ؟! »
« بيقول انه عاوز يشوف سعادتك ! »
« طب خليه يدخل ! »
وعندما هل امام على فهيم ، كان وجهه ينبىء بحدوث كارثة ! »

●●●

هتف حسين فى التليفون وكان غضبه قد بلغ ذروته :
« محسن عندك يابابا ؟! »
« مالك ياحسين ؟! »
« محسن عندك ؟! »
« لا .. انما ساب نمرة التليفون اللى هو فيه هنا ! »
« طب اديها لى ! »
وكتب حسين رقم التليفون ، وكان قد اتخذ قراره بالرفض !

●●●

قال فكرى السيد لسهام عمر وهما جالسان فى مكتبها المغلق :

« فكرى كويس يا سهام ، الحياة مش نزوة ! »
كان وجه سهام مكدودا متعبا .
« انتى مبهورة بتجربة مراد مع انها تجربة عادية ! »
ارتعشت السيجارة بين اصابعها .
« اسألى نفسك بصراحة ، تقدرى تعيشى مع ميكانيكى ؟! »
« ماهو حايكمل تعليمه يافكرى ! »
« بس حايفضل ميكانيكى ! »
همت سهام بالنطق ، لكنها لم تستطع ان تقول شيئا ، كان قلبها يدق بعنف شديد .
« سهام ، واجهى نفسك ، وخدى قرارك من غير انفعال ! »
مدت سهام يدها الى آلة التليفون ، رفعت السماعة فجاءها صوت عامل التليفون ، فطلبت اليه رقما .. وكان رقم تليفون الورشة ..
« مراد ... انا عاوزه أشوفك دلوقت ! »
اتفقت معه على الموعد ، ووضعت السماعة ، ونهضت .. كانت قد اتخذت قرارها !

●●●

« يعنى ايه يا اسطى امام ؟! »
« انا قلت لك على اللى حصل ... الرجالة حايعملوا فيه حاجة ياسى فهيم ! »
واحس فهيم بالخطر يحدق بمراد ، فداهمه خوف عربيد !

●●●

نظرت محسنة الى وجه مدير المركز الباسم ، بحثت فى وجهه عن تأثير ماقالت لكنها لم تجد سوى قناع لا ينبىء بشىء ... قال المدير :
« على العموم ادى لنفسك فرصة تفكرى ! »
قالت محسنة :
« انا عارفه انها فرصة العمر .. واربع سنين فى أمريكا مش لعب، بس انا شايفة انى اقدر احقق هنا اللى ممكن احققه هناك ! »
ارتدى المدير نظارته الطبية . ومال على الاوراق امامه قائلا :
« برضه فكرى يا آنسة محسنة ، انا رشحتك للبعثة دى لانى شايف انك احق واحدة فى المركز بيها ، ده من ناحية ، ومن ناحية تانية ، انا شايف انك ممكن تستفيدى منها كثير ! »

وهكذا كان عليها ان تغادر غرفة المدير ... عند الباب ، جاءها صوته :

« قدامك ليوم الخميس الجاى تقولى لى رايك ، يعنى بعد يومين بالضبط ! »

●●●

« عاوز تقول ايه يا اسامة ؟ »

« عاوز اقول انى مش موافق على سفرك ياسعاد . »

« اسامة ؟! »

قالتها فى حدة وهى تسدد اليه نظرات صارمة ، واجه نظراتها فى تحد وتذكر انفاس كريمة المتهدجة ، اجتاحه حنين جارف ، قال لنفسه أن كثيرا من الاطباء تزوجوا ممرضاتهم ، فلم لا يكون واحدا منهم ... عادت سعاد تهتف :

« أسامة .. انت اتجننت ؟! »

« سعاد .. هى كلمة . انا مش موافق على سفرك ! »

ارتجفت غضبا :

« بس انا حاسافر ! »

« يبقى نتطلق ! »

●●●

ابتسم مراد فى اسى بالغ وهو يمسح ملامح سهام بعينيه فى حنان .

« انا آسفة قوى يامراد ... بس احنا لازم نواجه الواقع ! »

لم يرد مراد ، ولم يحاول ، ظل مبتسما ، ظل صامتا ، ازدادت عصبية سهام ، قالت :

« انا عارفه ان اللى قلته بعد اللى حصل امبارح ، سخيف .. بس انا مش عاوزة أخوض تجربة تتعبك او تتعبنى ! »

تجاهل حديثها وهو يغمغم :

« يظهر ان الحكاية كبرت ! »

« حكاية ايه ؟! »

« الجماعة أصحاب الورش اللى حوالينا زعلانين قوى ! »

همت سهام بالرد عندما رفع مراد بأصابعه مناديا الجرسون ، كان الرجل قريبا فأقبل ...

ساله مراد وهو يضع يده فى جيبه :

« حسابك كام ؟! »

وهكذا غادر كل منهما الاخر فى صمت وحزن دون مزيد من الحوار ! .

●●●

« محسن ... انا عاوز اشوفك ! »

جاءه صوت محسن من الطرف الاخر :

« وهو كذلك ، انا فى انتظارك ! »

قال هذا ثم وضع السماعة !

كان حسين قد اتخذ قراره فعلا ، غير ان شيئا غريبا لفت نظره فى مكالمته مع شقيقه ... هو ان محسن لم يساله عن العقد ، وكأن شيئا لم يحدث بالامس و ... وكأن الامر لا يعنيه فى كثير او قليل ! .

●●●

كان وجه الدكتورة سعاد متحجرا وهى تقف بالسيارة امام باب المأذون . قال اسامة :

« فكرى يا سعاد ! »

ردت عليه وهى تهم بمغادرة السيارة :

« معنديش وقت للكلام ده يا اسامة ، انا مسافرة بكره ! »

●●●

هتفت فريدة وهى تجلس امام محسنة :

« تبقى عبيطة ، حد يسيب فرصة زى دى ؟! »

قالت محسنة بصوت رقيق انكرته على نفسها .

« يعنى انت رايك انى اقبل البعثة ؟! »

ردت فريدة فى حماس :

« لا ... انا رايى انك ترفضيها طبعا ! »

« ليه ؟! »

« علشان أطلعها انا ! »

قالت هذا وهى تطلق ضحكة مرحة !

●●●

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة مساء ، وكان مراد يجلس بجوار فهيم فى سيارته ، وكانت السيارة تقطع طرقات القاهرة فى طريقها الى حيث تعود الصديقان ان يجلسا .. كان مراد صامتا ، نظر

اليه فهيم نظرة سريعة وسأله :
« مالك يامراد ! »
« سهام قالت لى النهاردة انها مش حاتقدر تستمر معايا ! »
« انا كنت متوقع ده ! »
« وانا كمان ! »
اهتز فهيم حتى الاعماق ، كان صوت مراد مفعما بالالم . هتف فهيم :
« ايه يامراد ... أنت بتحبها حقيقى ؟! »
« وثريا طلبتنى امبارح بالليل ! »
« هى رجعت من كندا ؟! »
« عاوزه تشوفنى ! »
« انت كلمتها ؟! »
« طلبتها النهاردة الصبح . »
« وحاتعمل ايه ؟! »
« اتفقت معاها اننا نتقابل بكره الساعة عشرة ! »
ولم ينطق فهيم ، لم ينطق حرفا حتى غادرا السيارة ، ودخلا المحل ، وجلس كل منهما قبالة الاخر .. نظر فهيم الى وجه صديقه فبدت له ملامحه وكأنها تدمع ، اشفق عليه من الحديث ،راح يفكر فى كلمات مناسبة لما سيقول ، غير انه فوجىء بمراد يقول :
« انا حاسيب الورشة من بكره يافهيم ! »
وكان حملا قد انزاح من فوق صدر فهيم ، هتف فى سعادة لم يستطع أن يخفيها :
« ايه .. غلب حمارك ؟! »
« لا ... علشان اوفر عليك الكلام ! »
انقبض صدر فهيم . اشعل سيجارة ، قال مراد :
« انا عاوز ابقى كويس ، لكن الناس مش عاوزه كده ! »
وكانت فى عينيه دمعة حائرة !

وهكذا شهد هذا اليوم أحداثا متتالية ، كانت تبدو وكأن قوة خفية تدفعها دفعا نحو هدف مجهول ...
فلقد امضت سهام وقتا عصيبا منذ أن افترقت عن مراد .. ظنت فى البداية ان الموقف سوف يأخذ منها جهدا لكن مراد وفر عليها كل جهد عندما قبل الأمر دون مناقشة ، وعندما مضى عنها وحيدا بعد ان رفض ان يركب السيارة بجوارها ، عندما عادت الى البيت سألتها امها عما بها فتمتمت انها متعبة وتريد ان تنام . وعندما دق جرس التليفون وكان فكرى هو المتحدث طلبت من أمها أن تعتذر له بأنها نائمة .. وقبل أن تغرب الشمس قررت سهام عمر أن تسافر الى الاسكندرية لبضعة ايام ، وعندما غفت عيناها ظنت أن الامر قد انتهى !

●●●

جلس حسين قبالة شقيقه وهو يستعد لاطلاق القرار .. اخرج الدوسيه الانيق من حقيبة كان يحمله فيها وقدمه الى محسن ، الذى القى بدوره نظرة عليه ، ثم رفع الى حسين عينيه متسائلا :
« اتناقشت مع سميرة ؟! »
« أيوه ! »
« قريت العقد كويس ؟! »
« أيوه ! »
« طب ماوقعتش ليه ؟! »
هم حسين بالرد عندما تنهد محسن وتاهت عيناه الى بعيد فتوقف ، بدا له الامر غريبا فلقد كان محسن يبدو مكدودا متعبا .. مال حسين نحو شقيقه متسائلا :
« محسن .. مالك ؟! »
قال محسن :
« ايه رأيك ياحسين ؟! »

« فى ايه ؟! »

« انا عاوز اتجوز ماجده !! »

●●●

كانت سعاد قد انتهت من كل شيء ، جهزت حقائبها وزارت اباها وامها وودعتهما ، والتقت بمحسنة على السلم فقبلتها . ولم تك فى حاجة لاحد فلقد كانت الخطة ان يوصلها اسامة فى الصباح الى المطار ثم ... ثم ينتهى كل شيء ... وهاهى تجلس الان امام اسامه وقد اجتاحتها مشاعر متباينة ، احست برغبة شديدة فى أن تضم زوجها الى صدرها ، راحت تتملاه وقد جلس فى مقعده وراح يتتبع تمثيلية تلفزيونية بدت لها تافهة وبلا معنى على الاطلاق . وضعت ساقا فوق ساق وابتسمت قائلة :

« تعرف انك حاتوحشنى قوى يا أسامه ؟ »

لكن أسامه لم يرد . كان يبدو غاضبا شديد الغضب ، كان مقطب الجبين . وكانت سعاد تعلم كيف تصالحه .. نهضت الى التلفزيون فاغلقته ، جاءها صوته خشنا فانكرته :

« افتحى التلفزيون ! »

لم تدهش سعاد لان صوت اسامة كان خشنا ولا لان لهجته كانت جافة فقط ، بل لانه ايضا لم يناداها باسمها ولم يقل لها ياحبيبتى .. نظرت اليه وقد غاضت ابتسامتها من ملامحها الجميلة فبدت أكثر جمالا :

« مالك يا أسامه ؟! »

أخرج من جيبه صندوق سجائر فارتفع حاجباها دهشة . اشعل سيجارة فانتابها الجزع . هتفت به :

« وايه حكاية السجاير دى كمان ؟! »

« انا حر ! »

« أسامه . »

« افندم ؟ »

« فيه حاجة مزعلاك ؟! »

« لا ! »

« أمال مالك ؟ »

« عاوز أطلقك !!! »

ولم يستمر الامر طويلا ، كان الامر يبدو وكأن قوة قاهرة تدفعه نحو الهدف المحتوم ، قال أسامة انه لا يريد مناقشة الامر ، قال انه فكر طويلا واقتنع أن كل منهما لا يصلح للاخر ..

احست سعاد برعشة تسرى فى جسدها وهى تسأله :

« أسامه .. فيه حد تانى ؟! »

« لا مفيش انما .. .. »

« انما ايه ؟! »

« انا حاتجوز كريمة الممرضة ! »

كانت الطعنة امضى من اى حديث ، كتمت شهقة كادت تصدر عنها شدت قامتها وكانت ببرودة الثلج تسرى فى اوصالها ، نظرت اليه من عل وقد اكتسى وجهها بهذا القناع الفائق الجمال الخالى من الحياه ..

قالت بصوت ثابت :

« طيب يالله بينا علشان عاوزه أنام لى شوية قبل ميعاد الطيارة ! » .

●●●

هتفت محسنة :

« انا لسه ما اخدتش قرار ياماما ! »

ارتجف صوت الام وهى تقول :

« أختك مسافرة بكره ، واخوكى عاوز يهاجر ، والكبير مهاجر فعلا ... وأديكى عاوزه تسيبينا ! »

دمعت عينا الام فالتصقت بها محسنة مواسية :

« ياماما صدقينى ! »

نهضت الام وهى تقول :

« انا باصدق قلبى يا محسنة .. انا عارفة انك طالعه البعثة دى ! » .

ودهشت محسنة دهشة شديدة ، فكيف عرفت أمها انها كانت قد اتخذت قرارها بالفعل ، وانها سوف تذهب فى الغد الى مدير المركز لتخبره برغبتها فى السفر !!

●●●

اغلقت الورشة ابوابها ، والقى مراد بتحية المساء على بلية الذى انطلق يعدو من الزقاق كفار خرج من المصيدة .. كان الزقاق خاليا الان تماما ، والورش المتناثرة قد اغلقت ابوابها .. وكان مراد

مكلوما ، حزينا ... فى صدره دمعة توجعه ، وفى حلقه غصة ... بدا له كل شىء كئيبا وبلا معنى ، كان قد اتخذ قراره بأن ينهى العمل فى سيارة فتح موتورها قبل ان يترك الورشة . تحدث اليه فهيم بالتليفون وضرب له موعدا فلم يأت لاصطحابه مثلما كان يفعل دائما .. حتى الاسطى امام تجنب النظر اليه طوال النهار ، فلماذا ، وماالذى حدث ؟!

لماذا تتبدد الاحلام الوردية ولا تتحقق ، تفلسف ذات مرة فى الكلية مع بعض الذين يحبون التفلسف وقالوا بأن هـذه هى الدنيا . قال هوبز الفيلسوف الانجليزى أن الانسان ذئب لاخيه الانسان ، وقال سقراط ان الانسان فى الاصل خير ، فماذا يقول هو الان ؟! الآن ؟!

غير أن اكثر ماكان يضنيه هى سلسلة الهزائم التى راحت تتلاحق عليه ، ورغم ان ثريا أعطته موعدا لكنه لم يذهب اليها ، لم يفكر ، ولم يناقش ، فقط لم يذهب .. ورغم أن سهام كانت رقيعة فى موقفها الا أنه اليوم حزين .. لماذا يهزم دائما كلما اراد خيرا لنفسه او للآخرين ؟.. هزم مع ثريا ومع سهام وهاهو يهزم فى الورشة .. ولسوف يعود الى البيت صفر اليدين خال من نفسه ... تنفس الصعداء وتلفت يمينا ويسارا وكان كل شىء ساكنا ... ثمة فأر يصرخ وهو يعبر الزقاق الخالى فى رعب شديد ، اشعل سيجارة واستدار نحو الشارع الرئيسى عندما ارتطمت براسه ضربة عنيفة ، اشد ماوعاه ان الضربة جاءته على ام راسه فسقطت السيجارة من بين أصابعه ، فكيف وجعته الضربة ولم توجعه وتداخلت الاشياء فى عينيه ، لم يدر ماذا يفعل لكنه خطا الى الامام خطوة فهوت على وجهه لطمة عنيفة جاءته من جانب .. اشباح تتحرك وضربات تتتالى وبرق يضىء ظلام عينيه ودوار بلا الم ولكمة فى معدته ورغبة فى القيىء لكن بلا الم وبرغبة شديدة فى النوم .. واذا كل شىء الى فراغ ، ومن بعيد ، من بعد سحيق جاءته أصوات وهمهمات ورجل يقول ان هذا يكفى ، وهو يهوى من حالق . يهوى . يهوى الى لا وعى لذيذ .. وكانت فى عينه دمعة لم تفر .

●●●

نظر فهيم فى ساعته فانتابه القلق ، تلفت نحو باب المحل وظلت عيناه معلقتين بالباب لكن مراد لم يدخل . نادى على الجرســون

وقال له :

« لو الاستاذ مراد جه ، قول له يقعد يستنانى انا راجع تانى ! »

وكان فهيم يهرول وهو يغادر المحل الى سيارته وهو دهش اشد ماتكون الدهشة لذلك القلق الغريب الذى استولى عليه .

●●●

هبت سهام عمر من النوم فزعة .. كان ثمة حلما قد راودها اثناء النوم . شىء غريب بلا معنى ، لكنها كانت ترتجف ، وكانت انفاسها متلاحقة وضربات قلبها مضطربة والظلام يسود الغرفة .. اضاءت نور الاباجورة بجوارها ونظرت فى الساعة فانتابتها الدهشة ، كانت الساعة لم تتجاوز العاشرة الا بدقائق قليلة ، نهضت من الفراش وهى تحاول استعادة أحداث الحلم الغريب دون جدوى ، خرجت الى الصالة وكانت أمها تجلس أمام التلفزيون .. سألتها الام فى جزع وهى تنظر اليها عما بها ، تمتمت سهام قائلة انها حلمت حلما غريبا ... مضت بها الدقائق فى ضيق وقد ايقنت انها سوف تظل الليل ساهرة ، شردت عيناها نحو آلة التليفون وسألت أمها ان كان احدا قد طلبها فقالت الام أن فكرى السيد فقط هو الذى فعل ، تمنت لو أن مرادا قد فعل هو الاخر ، لو انه الح ، لو انه غضب او حتى ناقش ... تذكرت تلك النظرة الحزينة فى عينيه ، فاضطرب قلبها اضطرابا شديدا . صنعت لنفسها كوبا من الشاى ، وقبعت فى الفراش ، ودست عينيها فى كتاب لم تقرأ من سطوره حرفا !

●●●

اخيرا ... اخيرا تحدث محسن فى موضوع العقد .

كان ... كان الحديث قد دار بين الاخوين حول ماجدة حسن ، كان محسن يبدو ممزقا ، اشد ماكان يضنيه ويعذبه انه قد اكتشف فجاة أن حبه الاول لايزال كامنا مثل جرثومة فى قلبه ، راح الحديث بينه وبين شقيقه وجاء ، طاف بهما فى جميع انحاء المخاطر والمحاذير ، و ... ولم يصلا ، وقد قاربت الساعة الان على الواحدة صباحا ، الى شىء ...

وفجاة ، سال محسن :

« انت ليه ماوقعتش على العقد ياحسين ؟! »

كان الشراب قد تلاعب براس حسين ، وامده ببعض الشجاعة ، قال :

« علشان زعلان منك ؟! »
ابتسم محسن ابتسامة من يشفق على محدثه :
« اظن حكاية النسبة اللى قلت لك عليها ؟ »
« بصراحة يامحسن ، انا مش مصدق نفسى ؟ »
« تبقى لسه ماالتفطمتش ! »

الغريب ... الغريب فى الامر ان وجهة نظر محسن كانت مطابقة تماما لوجهة نظر سميرة ، فمن اين عرفت زوجته كل هذا اللى قالته والذى استفزه فيها واغضبه وجعله يركب راسه ؟! .. و .. ولم يطلب محسن من شقيقه ان يوقع العقد ، وكان يتحدث اليه عن نفسه وكانه يتحدث عن انسان آخر .. راح محسن يتحدث عن المجتمع هناك حديثا مستفيضا ... كان ينادى شقيقه بلقب عزيزى مرة وصديقى مرة لكنه ابدا لم يناده باسمه ، تحدث محسن عن الحضارة ، تحدث عن العمل ، عن قيمته ، هتف :

« تفتكر انت هناك ممكن تزوغ من الشغل نص ساعة والا ساعة زى مابيحصل هنا ؟! »
صمت حسين دون رد واردف محسن :
« اذا فكرت بالشكل ده تبقى عبيط . ثمانى ساعات شغل يعنى ثمانى ساعات شغل ، وكل حاجة فعلا بحسابها ، وكل شىء بثمنه حتى الكلمة لها ثمنها ... ... »

ظل حسين صامتا ، حتى اذا صمت محسن ليشعل سيجارة ولم يك قد انتهى من حديثه بعد ، بادره حسين متسائلا :
« طب انت رايك ايه يامحسن ؟! »
« الراى رايك انت ياحسين ، انت حر ، انت صاحب القرار ! »
« طب يا اخى بصفتك اخويا قول لى رايك ؟! »
« وهو انا اعرف ظروفك زيك ؟ »
قال حسين فجاة :
« هات العقد يامحسن ! »

وعندما وقع حسين على العقد ، كان قلبه يدق بعنف ، وكان يشعر شعورا غامضا بانه مقدم على مجهول مخيف ، فاحس بحاجة شديدة لوجود سميرة بجواره .. فتساءل : ترى من الذى يعتمد على الآخر فيهما ، هى ام هو ؟!

●●●

كانت الساعة قد جاوزت الثانية صباحا عندما دق جرس التليفون فى بيت سهام فانتفضت . غادرت الفراش مهرولة . رفعت السماعة وكل خلجة فى جسدها ترتجف :
« آلو ! »
جاءها الصوت ملهوفا من الطرف الآخر :
« آنسة سهام عمر ؟! »
« أيوه مين ؟! »
« انا فهيم صديق مراد ! »
صرخت فى لهفة :
« مراد ماله ؟! »
« لما اشوفك حاقول لك . بس هو فى مستشفى العجوزة دلوقت ! » .
« انا جايه لك حالا ! »

ورغم كل ماانتاب سهام من جزع وخوف ، الا ان احساسا غامرا بالراحة والسعادة كان ينتابها ...

●●●

فى الخامسة صباحا دق التليفون فى بيت حسين ، هتفت سعاد :
« حسين .. انا صحيتك مش كده ؟! »
« سعاد ؟! .. انت ايه اللى مصحيكى لحد دلوقت ؟! »
« تعالى وصلنى المطار من فضلك ياحسين ؟! »
« مالك ياسعاد ؟ .. فين اسامه ؟ »
« اتطلقنا ! »

●●●

فى التاسعة والنصف ، اقلعت الطائرة التى تقل سعاد الى الكويت وعاد حسين الى سيارته مثقل العينين وقد امتلأ قلبه بحزن غامض . بدا له الامر كله مثل حلم او كابوس ، غير انه لم يك يعرف ، انه فى تلك اللحظة بالذات ، كانت صرخة تنبعث من قلب امه ، ولهفة تهرول فى احساس ابيه ، وان شقيقه يرقد الآن فى المستشفى بين الحياه والموت ، وان اشياء كثيرة جدا قد تغيرت فى تلك الليلة الغريبة .. رلقد قاد سيارته الى بيت حبيبه ، الى سميرة ، وعندما

دخل عليها ، انكرته ، سألته فى لهفة عما به ، فهمس ان سعاد قد سافرت ، ولما سألته ان كان هذا هو سر حزنه ، قال : « لا .. اصلها اتطلقت من اسامه ! »

●●●

غير ان الايام مضت مسرعة ، ايام غريبة مشحونة بالاحداث ، ولقد تماثل مراد للشفاء بعد ان قبضوا على الجناة الذين كانوا مجموعة من عمال الورش المجاورة ، واعترفوا جميعا ، وكانت حجتهم أن مرادا جاء الى الورشة كى يخرب بيوتهم .. لكن مراد لم ينس ، ولن ينسى طوال عمره ، انه فتح عينيه على وجه سهام وهى تجلس بجواره .. اكثر ما اسعده أنه عندما تماثل للشفاء ، كانت سهام ، دون ان تدرى او تقصد ، قد اصبحت جزءا من العائلة ، كانت قد اصبحت صديقة لمحسنة ، كما اصبحت رفيقة لابيه وامه ، اما حسين فلقد جرفته الايام مع زوجته ، واقترب موعد سفره ، وكانت محسنة هى الاخرى ، قد اعدت الاوراق وراحت تنتظر موعد سفرها وقد انتابها قلق بالغ .

الشىء الغريب الذى لفت نظر مراد ، هو الاسطى امام ... فعندما سألته الشرطة عمن اعتدى عليه قال انه لا يعرف ولا يتهم احدا غير ان امام تقدم كى يقول الحقيقة كاملة !!

ترك امام ورشة فهيم عندما عرف بقرار مراد قائلا انه لن يعود اليها الا معه ، ترك فهيم مشروعه الجديد وقبع بجوار صديقه فى المستشفى وقد انتابه احساس غامر بالذنب .. تركت سهام مجلتها واخذت أجازتها السنوية وظلت قابعة بجواره طوال اليوم وجزءا كبيرا من الليل .. سافر حسين ذات يوم قبل أن يغادر مراد المستشفى ، وعندما تصافح الاخوان ، قال حسين :

« ابقى تعالى اقضى عندى شهر العسل ! »

وكان ينظر الى سهام وهو يقول هذا ، غير ان سهام هتفت :

« آسفة جدا .. انا عاوزه اقضى شهر العسل فى مصر ! »

ضحك مراد فى صوت ضعيف وهو يقول :

« انتى حاتتجوزى مين ياسهام ؟! »

قالت سهام فى صوت ثابت :

« انا طلبت ايدك من عمى رمضان .. ووافق ! »

عاد مراد الى الضحك قائلا :

« من غير ماتاخدى راى العريس ؟! »

●●●

ولقد مضت الايام ، وغادر مراد المستشفى لكنه عاد الى الورشة وكانت سهام اكثر حماسا من فهيم الذى قال انه تعلم من صديقه الكثير .. وسافرت محسنة ذات صباح ، وكان بسيونى عبد البر واحدا من مودعيها ، اما محسن فلقد اختفى دون أن يعرف عنه احد شيئا . قال البعض انه يقيم فى احد الفنادق الكبيرة ، وقال البعض الآخر انه عاد الى كندا ، وقال الاب والام وكان الحزن قد لف حياتهما بغلالة كثيفة ، ان هذا هو محسن ..

وذات يوم . وكانا جالسين ساعة العصر أمام التليفزيون وقد خلا البيت عليهما ، دار المفتاح فى باب الشقة ، ودخل مراد تتبعه سهام ...

رفع الاب عينيه الى ولده وقال :

« انتوا اتجوزتوا ؟! »

وهتفت سهام فى دهشة :

« عرفت منين ياعمى ؟! »

« شكلكم باين ! »

وكان الاب فرحا ، وبكت الام فرحا .. غير ان ثمة احساس غريب بالحزن ظل يطل من عيونهما .. ولقد همس مراد فى اذن ابيه وقد التصق به :

« مالك يابابا ؟! »

« حابكون مالى يعنى ... اخواتك كلهم هاجروا ! »

هتف مراد :

« ولا يهمك .. بكره اجيب لك دستة عيال تملأ عليك البيت ! »

وضحكت الام من اعماقها ... وقال الاب مكابرا :

« طب وبعدين ؟ »

قال مراد :

« ويكبروا . ويتعلموا . ويبقوا مهندسين ودكاترة ! »

فى مرارة قال الاب :

« ويهاجروا ؟! »

وانفجر مراد وسهام ضاحكين ، وودعا الابوين فى حنان ، فلقد كانا مدعوين على العشاء فى تلك الليلة ... وكان فهيم هو الداعى !

انتهت

هذه الرواية

كانت "المهاجرون" هي القضية الأولى التي تشغل المجتمع المصرى فى النصف الثانى من السبعينيات . كما أنها لاتزال حتى اليوم . قضية من أهم قضايا المجتمع المصرى الحديث !

وهذه هي الرواية الرابعة للاديب صالح مرسى بعد « زقاق السيد البلطي » . و « الكذاب » و « السجين » ..

وإذا كان الكاتب قد عرف فى صدر حياته الأدبية . على أنه يجيد الكتابة عن مجتمع البحر والصيادين . فلقد عرف بعد ذلك على أنه يجيد الكتابة عن عالم الجاسوسية الذى قدم عنه اعمالا سينمائية وتليفزيونية ـ الصعود إلى الهاوية . ودموع فى عيون وقحة ـ ثم قدم فى العام الماضى رواية « الحفار » وفى هذا العام كتب ثلاثيته الناجحة « رأفت الهجان » ... ولكن . ان ما يشغل هذا الأديب . ليس هو « الجو » الذى يغلف أعماله . بقدر ماتشغله تلك القضايا التى يفرزها المجتمع وتبرز على سطحه ملحة أكثر من غيرها .

فى « المهاجرون » يقول صالح مرسى كلمته فى هذه القضية !